زدني علماً

مارغريت روتّن

تاريخ بابل

مع مقدمة من المؤلف
خاصة بالطبعة العربية

ترجمة زينة عازار
وميشال أبي فاضل



تاريخ بابل

مارغريت روتن
امينة فخرية للمتاحف في فرنسا

تَاريخُ بَابل

ترجمة زينة عازار
وميشال ابي فاضل

منشورات عويدات
بيروت . باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٤

مقدمة المؤلف
للطبعة العربية

يجمع المؤرخون المعنيون بدراسة عصور ما قبل التاريخ على أن المجتمعات البشرية الأولى قد نشأت في الشرق . وفي وقت لم يكن لبقية شعوب العالم القديم تاريخ بعد، نجحت تلك المجتمعات في أن تشكل دولاً بفضل تطورها السريع .

وقد لعبت بابل (التي يخلط البعض بينها وبين بلاد ما بين النهرين أو العراق اليوم) دوراً بارزاً . ففي وسط تلك البقعة الفسيحة من الشرق الأوسط الذي يحده غرباً البحر المتوسط ، وشمالاً جبال القوقاز ، وشرقاً حدود إيران الشرقية ، وجنوباً الخليج العربي ، وحيث ظهرت حضارات مختلفة ، نشرت بابل لواء حركة ثقافية موحدة .

ونظراً لوقوعها بين الهضبة الإيرانية في الشرق، وهضبة آسيا الصغرى في الشمال الشرقي — وهاتان الهضبتان هما امتداد لسهوب آسيا الوسطى الكبير الذي انطلقت منه التحركات الكبرى

لشعوب العالم – ونظراً لكونها محكومة من الغرب بصحراء الشام الكبرى التي كان يعبرها البدو الساميون ، فقد توصلت بابل إلى هذه الهيمنة بفضل الجهد المتيد لدى شعبها المقيم .

وما أن نشأت الحاضرات الأولى حتى شرعت بتنظيم مجاري نهريها الكبيرين : دجلة والفرات ، وبانتزاع التربة من فيضاناتهما ، فاكتسبت أرضها خصوبة أسطورية . وقد استوطن السومريون منذ فجر التاريخ السهل الجنوبي من بلاد ما بين النهرين ، وهو سهل أصبح أكثر غنى من المقاطعات المجاورة ، وإليهم يُعزى دور رئيسي في توفير المقومات الأساسية لحضارة الشرق الأوسط .

وقد تمّ تبسيط تلك المقومات أو تحويرها بفضل إسهام الساميين . ويلاحظ المرء منذ القديم وجود جماعات من البدو كان أهمها جماعات الغرب المؤلفة من الساميين . أما التنقلات التي لم يهدأ لها سبيل ، وأحياناً التنقلات الفعلية ، فقد قوّت بشكل دائم العناصر السامية عند تلك الشعوب . وقد اجتاح الأكاديون السومريين ، وتسلّل الأموريون بين السومريو – اكاديين فأسسوا مدينة بابل في بداية الألف الثاني . ومنذ القرن الحادي عشر ، قبل عصرنا هذا ، انتشر الآراميون على تخوم بلاد ما بين النهرين . ونظراً لعلاقتهم بالشعوب الكادحة المقيمة عندأطراف الصحراء فقد عقد البدو شبكة من المبادلات ، ومن أجل

تلك الحركة التجارية الواسعة طوروا محطات القوافل ففتحوا باب الثروة أمام تدمر التي حاولت في تلك الحقبة السيطرة على الشرق الأوسط والوقوف في وجه روما .

أما العرب فإن التاريخ يذكر غزواتهم هنا وهناك قبل الفتح الإسلامي بزمن بعيد . وقد غنموا من مخلفات آلاف من السنين كانوا قد وجدوها في البلدان التي استوطنوها ، ووصلهم جزء من تراث الحضارة البابلية التي نقلوا لنا مقوماتها في العصور الوسطى .

وهكذا وبعد ان ازدهرت على امتداد الشرق الأوسط تخطت هذه الحضارة حدود موطنها ، فقامت تبادلات عديدة منذ القديم بين الشرق والغرب ، بحراً على أيدي الفينيقيين ، وتجارياً مع السوريين . إلا أنه بفضل تدخل الإغريق الذين أتوا قديماً للتعلم في مدارس آسيا الصغرى التي بقيت مؤتمنة على «علوم» البابليين وصلت إلينا تلك المعارف التي استوعبوها .

وها نحن نحاول على ضوء دراسة الوثائق المبعثرة ، المجتزئة ويا للأسف ، التي حصلنا عليها من الحفريات ، تفسير أصالة الحضارة البابلية .

مارغريت روتن

١ شهرة بابل

إذا كان ثمة مدن ذاع صيت ماضيها الشهير في التاريخ والاسطورة ، فإن بابل هي من بين تلك المدن! وأطلالها هي أقدم بكثير من أطلال مدن الحقبة الكلاسيكية التي ما زالت تجذب الأنظار إليها منذ عصر النهضة ، فقد أثارت هذه الأطلال فضول الباحثين في كل حين. وكانت أخبار المسافرين القدماء ، منهم والمعاصرين على حد سواء ، وكتابات المؤرخين الإغريق ، وكتّاب التوراة مصادر معلوماتنا الوحيدة عنها حتى منتصف القرن التاسع عشر . فمنذ تلك الفترة وسّع حل رموز الكتابة المسمارية، والتنقيبات الأثرية، معلوماتنا وجددها. وهذه الوثائق البابلية بالذات هي التي تقص علينا مجد بابل . وعلى هذا النحو خرجت هذه الحاضرة من الاسطورة، ومن كفن الأرض الذي

طمرهـا منذ آلاف السنين . ونحن إذ نتصدى لدراسة تاريخها ، فليس لنزوة عـابرة خطرت لنا ، بل لتوافر نصوص بين أيدينا يدعمها ما تبقى لنا من آثار .

شهرة بابل استناداً إلى الكتابات المسمارية . — لم تحظ أية مدينة أخرى ببريق الشهرة التي أحيطت به بابل في أعين سكان بلاد ما بين النهرين القدماء . فقد أغدقت عليها الكتابات البابلية شهرة لا مثيل لهـا . وعودة بنا إلى عملية الخلق نجد « حكاية التكوين الكلدانية » تخبرنا بما يلي :

«لما لم تكن قد أنشئت أية مدينة بعد ، ولم يكن قد تكوّن أي تجمع ، يوم كانت البلدان قاطبة مغمورة في لجة « البحر » يومذاك أنشئت « المدينة العامرة » وشيد الايساجيل[1] ، هـذا المقر الذي سكنه مردوخ وسط الأوقيانوس ؛ ولما كانت بابل قد أنشئت ، ومقر الإله قد انتهى بناؤه خلق مردوخ الأنوناكي الذين أغدقوا على المدينة « إسماً شهيراً » . ثم جدل مردوخ على صفحة المياه حصيرة ، وضع تراباً أفرغه فوقها ، وأفرغ ماء أيضاً . ثم خلق الانسانية في ما بعد ليسكن الآلهة في مقر بديع » .

فبابل ، في هذه الرواية ، هي المدعوة « مدينة الكل » ، أو

---

١ ـ الايساجيل ، أو الـ أي ـ سا ـ جيل ، هو مقر الاله مردوخ ، أم آلهة بابل (المترجمان) .

« المدينة العامرة » ، وهي أولى المدن التي أنشئت . — وعلى أثر تماثل في اسمها ، أطلقت الصفة ذاتها على مدينة أريدو . — فقد ظهرت بابل من المياه ، وهيكلها الأيساجيل هو أول بنيان شيده مردوخ. ومن ثم مزج الإله التراب بالماء، وأفرغ هذه العجينة على حصيرة من القصب ، وضعها على صفحة مياه الأعماق ، ثم خلق الانسانية . ومن البديهي جداً أنه قد أريد بذلك اطلاق العنان للخيال عند وضعها على هذا الشكل فوق كل مدن العالم الأخرى ، وبإعطائها الأقدمية عليها . فمن المنطلق ذاته تُعلن مقدمة شريعة حمورابي ان الإلهين انو (إله السماء) ، وإنليل (سيد البلدان) ، قد وهبا السيادة على الكون للإله مردوخ ، وركزا ملوكيته على بابل التي « علا مقامها فوق كل المقاطعات ... » .

وكانت بابل في أعين البابليين مركز العـــالم ، **الاومفالوس** *(omphalos)* . وقد وجدت خـــارطة مرسومة على لوحة من الخزف تعود إلى العصر الفارسي، وهي تمثل العالم القديم ، كما كان يتصوره أهل بابل ، وكانت تلك البلاد تشغل وسط الدائرة ؛ وفيهـــا مثلثات تدل على بعض المناطق ، ولجهة الشمال يقرأ المرء هذه العبارة : « البلاد التي لا تشاهد فيها الشمس » . وحسب قول بروينس، إن هذه الخارطة صحيحة من الوجهة الطوبوغرافية ، فإذا ما وضعنا فوقها خارطة من خوارط اليوم ، مركزها بابل ،

فإن المثلثات الخمسة تشير بوضوح ، حيث هي تماماً ، إلى بلاد إيران ، والقوقاز ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، وشبه الجزيرة العربية . ونجد فيها أيضاً النهرين ، والجبال والمستنقعات .

الكتاب العرب.– وقد حافظ ابن خلدون في القرن التاسع ، والطبري ، وهو من القرن نفسه تقريباً ، وكذلك ياقوت ، صاحب المصنفات في القرن الثالث عشر ، على التقليد نفسه الذي جعل من « بابل » « قلب الايران شار » ، أي قلب العالم. » وقد استقى المسلمون معلوماتهم وأخبارهم الأسطورية عن مدينة بابل من مصادر ثلاثة : يهودية ، وفارسية ، ومسيحية ، وقد أضفت هذه المصادر أيضاً الأقدمية على بابل » .

التوراة . – وقد أسهم كتاب التوراة ، والمؤرخون الأغريق في إشاعة شهرة بابل نبوخذ نصّر ، التي كانت يومها في أوج قوتها وغناها وتأثيرها . وكان « السبي » أحد الامور التي اشتهرت به جداً . فقد كان هذا السبي الجماهيري نتيجة سياسة خرقاء تزعمها الملك اليهودي ساداسياس . فنظراً لموقعها على امتداد فينيقيا ، حاولت فلسطين (الواقعة هي أيضاً بين القوتين العظيمتين في ذلك الزمان : مصر من جهة ، والامبراطوريتين البابلية والأشورية من جهة أخرى) دون جدوى ، اتباع سياسة توافق وتوازن . وبصورة متبادلة كانت تجتاحها إحدى هاتين

الاثنتين ، فقد كان المجاز السوري — الفلسطيني مجال صراعات متواصلة بين تلك الدولتين العظميين . ونظراً لاسترساله في عواطفه المصرية جرّ ساداسياس بلاده لصراع غير متكافىء ضد بابل ، وذلك بالرغم من تحذيرات النبي ارميا الذي نصحه دون جدوى ، بالرضوخ لنبوخذ نصر ، ولهذا السبب جر على نفسه غضب شعبه. ولما هزم ملك مصر ، واحتلت القدس (اورشليم)، توفي الملك ساداسياس في الأسر ، ونهبت اورشليم ، ونهب هيكلها وقصرها ، وسبي شعبها فتعززت اليد العاملة التي استخدمت في تنفيذ المشاريع الكبرى التي أمر بها نبوخذ نصر لتجميل بابل العظيمة والريف الذي يحيط بها . وقد أتاح لنا كتّاب التوراة بفضل ردود فعلهم (كالنبي دانيال مثلاً ، الذي ألحق بالبلاط وجيء به بين الأسرى ، والذي ترك لنا كتابات غنية بالاضافات السابقة التي تشير إلى سقوط بابل) ان ندرك مدى قوّتها . ولم يعطِ النبي حزقيال ، حين تنبأ بخراب مملكة يهوذا ، وصفاً مباشراً لبابل ، ولكن رؤاه التي تتحدث عن مخلوقات عجيبة ، وحيوانات مستغربة ، هي مستوحاة بشكل واضح من المنشآت العملاقة التي كانت تزين بها بابل جدرانها وأبنيتها. أما في ما بقي فإنه لا يمكن إنكار فهم اليهود للحضارة البابلية ، لأن هؤلاء المسبيين أخذوا يندمجون تدريجياً بالحياة البابلية . وقد اكتشفت

التنقيبات الاميركية في نيبور، سجلات عائلة يهودية أنشأت – في حقبة لاحقة – نوعاً من «المصرف» كان يحل محل مكاتب الهياكل القديمة، ويتعاطى كل المبادلات، ليس فقط مع البابليين، بل مع الفرس أيضاً، والميديين والآراميين. كما عرف في بابل أيضاً «مصرف» كبير أداره اجيبي وأولاده وخلفاؤه، منذ عهد نبوبلاصر حتى عهد داريوس.

الكتّاب الأغريق. – أصبحت المعلومات مع الكتّاب الاغريق أكثر دقة. ويأتي هيرودوت في طليعة أولئك الذين تركوا لنا أوصافاً لبابل. ولشهادته قيمة أكثر بكثير من شهادات أولئك الذين جاؤوا بعده وكرروا أقواله بطريقة أو بأخرى. ووفقاً لـــــا يرى لوغران، فقد أنهى هيرودوت جولاته حوالي السنة ٤٥٠ ق.م. وكان عليه أن يجمع خلال رحلاته الوثائق التي استعان بها لتحرير كتبه التي يمكننا أن نقابلها بالكتابات المسمارية التي كانت أساساً لعمله. وثمة تصحيحات للتفاصيل والتأويل قد أصبحت ضرورية، لكن مجمل عمله يبقى ذا قيمة عظيمة. واعتبر سترابون، في بداية العصر المسيحي، مؤرخ عالـَم قد عبر، يوم كانت بابل في أواخر أيامها. ويعتبر ديودور المعاصر له، الذي استند إلى معلومات كتازياس، وهو طبيب إغريقي أقام في بلاط الملوك الأخميديين، من موقعه هذا أكثر دراية ببلاد فارس من

بلاد بابل .

ويرى ديودور وكانت — كيرس الذي كرر أقواله ، ان هذه المدينة تأسست على يد الملكة سميراميس ، لكن المرء يبحث بلا جدوى عن هذا الاسم في لوائح السلالات البابلية. وعلى العكس، فإن مسلة تذكارية اكتشفت في أشور ، تشير إلى أن هذه الملكة هي من بلاد أشور واسمها ساموراامات ، وقد قامت بمهام الوصاية إلى أن بلغ ابنها اداد — نيراري الثالث سن الحكم. هذا ما حدث في نهـــاية القرن الثامن ق. م. والظاهر أن فترة حكمها كانت مزدهرة ، وكان لها سطوة امتدت لفترة أطول بكثير ممـــا هو مألوف، لأن المؤرخين ينسبون إليها كل الأعمال الكبيرة تقريباً. وهكذا فإن الطريق الملكية الكبيرة التي وصلت سارد بسوزة ، والتي يبلغ طولها زهاء ٢٤٠٠ كلم ، وقد استعملها الفرس في مـــا بعد — وهؤلاء ما كانوا يسلكون في الواقع إلا طريق القوافل القديمة — قد دعيت « طريق سميراميس » . ومنذ الوقت الذي أنشئت فيه حقول النخيل التي أطلقت شهرة على مدن مـــا بين النهرين ، بدأت حركة مرور كانت تشتد تدريجياً بين مراكز الأسواق تلك ؛ ونظمت محطة لترحيل القوافل؛ وبقيت محطات الترحيل تلك تقريباً على مـــا هي عليه منذ العصر القديم حتى أيامنا هذه التي أوحت للسيارة والطائرة حرق كل هذه المراحل .

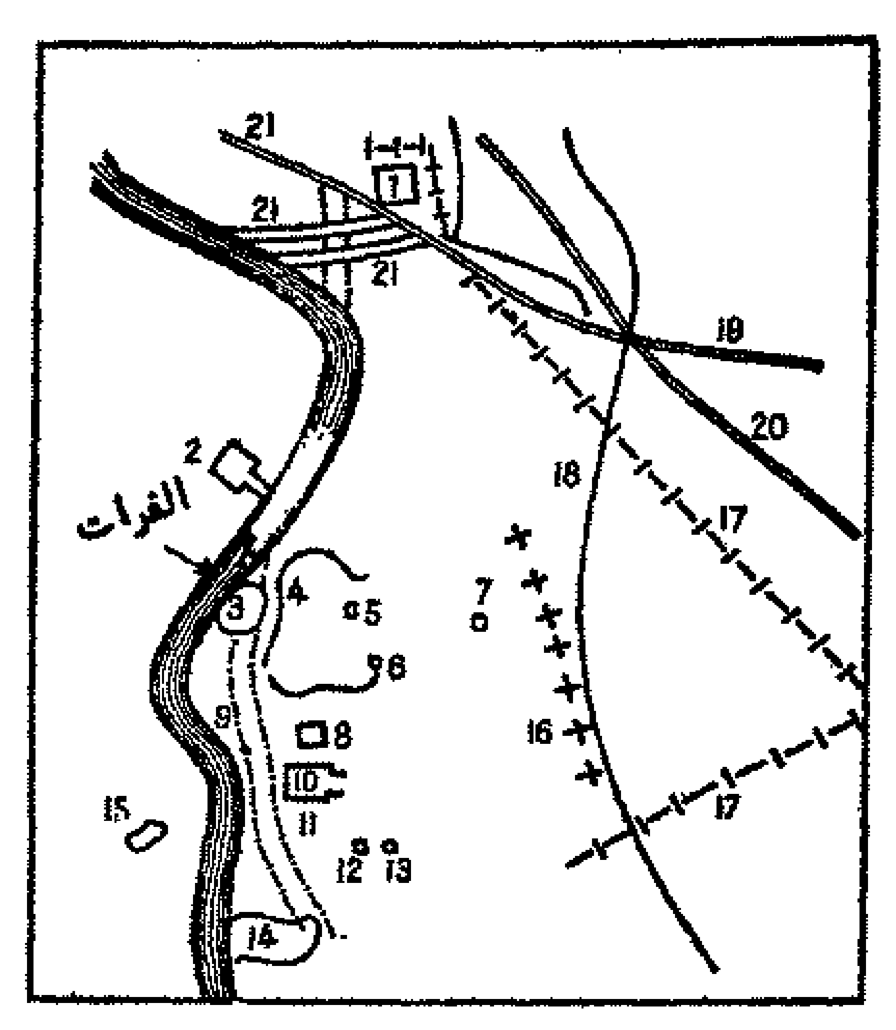
الرحالة . — ان الرّحالة الذين قطعوا تلك المناطق لم يقوموا برحلاتهم إلا بعد تكبد مشقات كبيرة . وكانت الروايات التي تركوها نادرة جداً . فحالة الآثار لم تكن مشجعة ، ولم يكن ثمة شيء يشد انتباه المسافر حين كان يمر بالقرب من موقع كان ذا أهمية في سالف الزمان ، ولم يكن بإمكانه ان يجد فيه شيئاً ! وكان أول شخص ترك لنا رواية تكاد تكون مفصّلة عن تلك الآثار هو الحاخام بنيامين ، من تيدال ، وقد عاش في القرن الثاني عشر ب. م. ، فهو يصف بابل على هذا النحو : « بابل هي اليوم مهدمة بكاملها ، ولا تزال خرائب قصر نبوخذ نصر باقية فيها ، ويصعب الوصول إليها بسبب الأفاعي والأبالسة ... » . ولم يُظهر هذا الرحالة أية روح نقدية ، وقد اعتقد أن بإمكانه مزج برج بير — نمرود ، الواقع على زهاء ٢٠ كلم من بابل ، بآثار برج بابل الشهير . واقترف كارستان نيابوهر الخطأ ذاته سنة ١٧٦٦ ب. م. وبإذعانهم لأقوال الأهالي لم يتجرأ العديد من الرحالة على المخاطرة بأنفسهم في الخرائب التي كانت تمنع الناس من الوصول إليها بسبب الأفاعي والحيوانات السامة . إلا أن بياترو دالافالي تجرأ على ذلك في سنة ١٦١٦ . ولاحظ حالة الغموض التي تبدو فيها تلك الخرائب . فقد حاول أن يمزج بين القصر أو الجلبة ، التي وصف شكلها المستطيل ، و «مقبرة باليس»

التي أشار إليها سترابون . وقد أتى بقطع من الآجر من البرج ذي الطوابق ، ومن القار الذي كان يشد تلك الطوابق إلى بعضها البعض ، مثبتاً بذلك وصف بناء برج بابل الذي ورد ذكره في التوراة :

« وقد استخدموا الآجر حجراً ، والقار ملاطاً » .

وقد تمكن بالفعل من التعرف بصعوبة على خرائب الآثار التي وصفها هيرودوت. وفي سنة ١٧٩٤ ، خلط العالم الطبيعي اوليفيه « هيكل بالس » الذي وصفه الكتّاب القدماء بأم الأطلال الباقية من « الجلبة » التي يطلق عليها الأهالي إسم المقلوبة ، أي التي قلبت رأساً على عقب ، نظراً لمظهرها (الشكل ١ ، ص ١٨). ولقد تبين الإنكليزي ريش ، في العام ١٨١١ ب. م ، مدى اتساع بابل. وعيّن ريمون ، الذي ترجم كتـــاب ريش وذيّله بشروح ، مكان معبد بالس في محلة عمران بن علي ، ومكان « القصر » و« الجنائن المعلقة » الذائعة الصيت في محلة القصر . وتقربنا مناقشات بكنغهام (١٨١٦) ، وبايي فرايزر (١٨٣٤) ، والكولونيل شاسني (١٨٣٨) ، من تلك الفترة التي كانت فيهـــا التنقيبات على وشك أن تقدم لنا الحجج التي لا تدحض ، وهذه الحجج هي التي سنستنطقها الآن .

منظر الموقع. – عندما أجريت التنقيبات الأولى على موقع بابل ، كان يبدو منظر الخرائب منذ زمن بعيد جداً كما هو اليوم



الشكل ١ – منظر الموقع .

الحالة الراهنة لخرائب بابل (عن كولديوي واندراي) .

١ – بابل ٢ – قرية عنسانه ٣ – قرية قويرش ٤ – القصر (الجلبة) ٥ – أي – ماه (هيكل ننـ – ماه) ٦ – هيكل عشتار اكاد ٧ – المسرح (الافريقي) ٨ – ايتامانكي (برج الطوابق) ٩ – بقايا الجسر القديم ١٠ الايساجيل (هيكل مردوخ) ١١ – عمران بن علي ١٢ – هيكل غولا ١٣ – ايباتوتيلا (هيكل نينورتا) ١٤ – قرية الجمجمة ١٥ – قرية سندشار ١٦ – بقايا السور الداخلي ١٧ – بقايا السور الخارجي ١٨ الطريق من بغداد الى الحلة ١٩ – قنوات قديمة .

==: == : == المجرى القديم لنهر الفرات

عندما نطل عليها من جهة بغداد (الشكل ١ ، ص ١٨) . ولم تُجرِ أشغال مختلف البعثات على تلال الخرائب سوى تعديلات جزئية ، وقد بقي شكل الأرض العام على حاله . وبينما كانت طريق الاحتفالات في الشمال الشرقي تزدان « بباب عشتار » الشهير ، كان يربض فوق تلك الخرائب من جهة الشرق نصب لأسد ، ثبت اليوم على قاعدة ، وعرف باسم « أسد بابل ». ويمتد موقع بابل على طول الضفة اليسرى لنهر لفرات ، على مسافة تزيد على ٣ كلم ، وقد عُين الحد الأعلى شمالاً بتلة لها ذات الاسم الشفاف الذي « لبابل » ، وهي تلة يتناقض قحطها مع خصب السهل المجاور . وقد شيدت على تلك التلة قلعة يُحتمل أن تكون قد بنيت على سطح عال على يد الساسانيين ، أو في بداية الفتح العربي فوق أنقاض نبوخذ نصر . وينعطف الفرات أول الأمر تحت التل لجهة الشرق ، حيث عثر المنقبون على شاطىء مجراه القديم ، ثم ينطلق نحو الجنوب الغربي مسافة ١٥٠٠ م تقريباً . وتوجد بين حقول النخيل أحيـــاء المدينة القديمة الأقل أهمية . فبالقرب من منعطف الفرات الثاني الكبير ، الذي يشكل على هـــذا النحو خطاً متعرجاً ، يوجد تل القصر بطول ٥٥٠ م ، وعرض ٤٠٠ م ،بالاضافة إلى أنقـــاض قصر ثان لنبوخذ نصر . وكان مجرى الفرات أكثر استقامة في القديم ، والخرائب القائمة

حالياً إلى الشرق في بطن الأرض، كانت أقرب إليه . فتلك هي آثار السور والبرج الشهير ذات الطوابق (برج بابل) العائد لمعبد مردوخ ، إله بابل . وثمة جسر عثر على بقايا ركائزه ، كان يصل أحياء الشرق بأحياء الغرب . وفي طريقنا نحو الجنوب نصل إلى التل المعروف باسم تل عمران بن علي ، والذي يحوي في جهتـــه الشمالية أنقاض هيكل الإله مردوخ . أمـــا الجهة السفلى من الأنقاض ، التي استخدمت كمدافن في العهدين الإغريقي والبارثي، فهي معروفة بقرية الجمجمة، الواقعة إلى الجنوب من نهر الفرات. وفي طريقنا الصاعد من الجنوب إلى الشمال نرى إلى اليمين ، هنا وهنـــاك ، بعض مداميك تشير إلى السور القديم . وأهم تلك المداميك يقع بجهة الشرق . ويُشكل ضلعي شكل رباعي تقابل زاويته المتجهة إلى الشرق المنعطف الذي يشكله الفرات في الغرب . أما الطريق التي تتجه من بغداد إلى الحلة فتقطع السور وتخترق المدينة القديمة .

وإلى الجنوب الغربي ، وعلى بعد ١٧ كلم من الحلة ، تقع تلال بير-نمرود وبورصيبا القديمة، وفي القديم ُظنّت أطلالها المرتفعة، التي ما زالت تحتفظ بشكل برج مسنن ، وكأنها آثار برج بابل ، مع انه من المستبعد أن تكون مساحة مدينة بهذا الاتساع . وقد جاورت بابل تجمعات مهمة قامت على مقربة منها .

٢ أعمال التنقيب

بعثة فرانل — أوبرت . — بدأ أول استكشاف علمي لبابل سنة ١٨٥٢ . وكانت قد انقضت يومها عشرة أعوام على أعمال التنقيب التي بدأها بوتا في نينوى وخرصباد ، على مقربة من الموصل. وكانت فرنسا قد تخلت يومئذ عن كل نشاط علمي في الشرق غداة ثورة ١٨٤٨ ، وكانت إنكلترا هي التي أخذت على عاتقها زمام التنقيب في بلاد أشور . ولما عادت الأحوال السياسية إلى مجراها الطبيعي، أرسلت الدولة الفرنسية بلاس إلى خرصباد سنة ١٨٥١ ، ومنحت البعثة العلمية والفنية في بلاد ما بين النهرين وميديا ، مبلغ ٧٠٠٠٠ فرنك ، وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام، وقد ترأس تلك البعثة السيد فرانل الذي كان قد اكتسب خبرة

طويلة في بلاد المشرق. وكان يعاونه آنذاك جول أوبرت ، الذي أصبح فيما بعد أحد مؤسسي دراسة الحضارة الأشورية في فرنسا، والمهندس المعماري السيد توماس . وكانت النتائج البــاهرة التي حصل عليها الانكليز في نينوى ، التي سرعان ما غادرها بوتا ، قد أصــابت بالمنقبين البحث عن حاضرة كفيلة بتبرير الجهد المطلوب . وكان على تلك البعثة أن تتجه شطر بابل ، تلك التي كانت التقاليد قد رعت دائمـاً ذكراها . فقد غادرت باريس في أول تشرين الأول سنة ١٨٥١ ، ومرت بالموصل في ٤ آذار سنة ١٨٥٢ ، ولم تصل بابل إلا في ١٥ تموز، بعد تأخر كان من أسبابه اضطراب حبل الأمن في تلك المنطقة ، والمعاملات المطلوبة أثناء السفر.

وكان « أسد بابل » ، الرابض على تلة القصر، أول أثر ظهر لأعين المستكشفين. وظهر هذا الأسد وهو يبطح رجلا مستلقيـاً على ظهره وقد بذل جهده للتخلص منه . وترتكز هذه المجموعة التي يبلغ طولهـا ٣ م وارتفاعها ٢ م. على قاعدة ضخمة من حجر البازالت تعطي انطباعاً بأن هذا التمثال يكاد يكون متآكلاً ، وقد يعود تآكله لمرور الزمن الذي أتلف التمثال. وقد بقي أصل هذا الأثر مجهولا . أما طراز هذا الحيوان الثقيل والقوي فإنه يذكرنا بتمثال حثي في شمالي سوريا ، يعود ربما إلى القرن العاشر

أو التاسع قبل المسيح ، وقد يكون نقل إلى بابل بين غنـــائم الحرب . وقد رآه ريش سنة ١٨١١ ، وكان يومها تحت تلة من الركام . ومنذ ذلك الحين لم يألُ الأهلون جهداً بأن يبرزوه للمسافرين، وقد وصفه أحدهم وكأنه فيل تحطم خرطومه !

وقد كشفت النقاب عنه كلياً بعثة فرانل – أوبرت وأعادت تنصيبه من جديد على قاعدته ، ومنذ ذلك الحـــين وهو لا يزال ماثلاً للعيان ؛ وعندما نقارن مختلف التأويلات التي تناولت هذه التحفة الفنية ، ندرك عندئذ الصعوبة التي تبرز عندما نعطي لأثر معين هوية معينة .وقد أوّله الكولونيل كابل على أنه تمثيل «للنبي دانيال وهو في حفرة الأسود » ، وقد نوقش هذا الأثر من قبل العديد من الباحثين، فوجدوا فيه أسداً ، وفيلا ، وتمثالاً إغريقياً حسب قول توماس ، وهو لا يزال لغزاً كما يقول فرانل . وقـــد فشلت بعثة فرانل – أوبرت فشلاً ذريعاً . ففي نهـــاية القرن الماضي ، كان التنقيب نوعاً من درس لسوق الآثار . ولكن بابل لم تنتشل كزميلتها نينوى من عالم النسيان ، فقد نهبت منذ القديم على دفعات . ولما فقدت قوتها ، جردت من روائعها الفنية لصالح منافساتها . وقد انتزع منها فلاحو المناطق المجاورة ، فيما بعد ، كل ما كان يلزمهم لصنع منشآتهم أو حق لصنع الكلس . فحيث كان القصر لم يعثر المنقبون إلا على قطع من الآجر المزخرف ،

وقد استخدمت لصنع حيوانات ضخمة الجثة في النقش البارز ، ولصنع الآنية الملساء ، واعتقدت البعثة استناداً إلى أوصاف ستازياس ، التي كررهـــا ديودور (الفصل ٢ ، الفقرة ١) ان النقش البارز المزخرف كان يعتقد أنه يمثل مشاهد صيد كانت تزين جدران القصر ، أما ما يقصد بهـــا فكان صوراً لحيوانات مقدسة كانت تزين «باب عشتار» وجدران «طريق الاحتفالات». ولم يعثر المنقبون في تل عمران بن علي إلا على نواويس من الطين الحي ، وعلى جواهر من مدافن العهد البارثي . ولما كان التنقيب قد سار أفقياً وليس في العمق ، لذلك لم يكن بوسعنا أن نكون فكرة واضحة عما كانت تمثله تلك البقايا . وبناء لشرح المنقبين بإمكاننا الرد على أن اهتمام علماء الآثار الوحيد في تلك الفترة كان منصباً على البحث عن الشيء النادر وعن الأثر. فقد قاموا أحياناً بأعمال همجية حقاً لتخريب الآثار ، فنزعوا رؤوس التماثيل التي لم يكن بوسعهم حملها ، فبتروا الآثار على هذا النحو بتراً لا علاج له . وإليك أيها القارىء ما سجل لنا التاريخ من عقلية المنقبين الهمجيين . فثمة مثل نموذجي عن هذه العقلية في تقرير افرانل أرسله إلى الوزارة المعنية بالأمر (رقم ٥ ،تاريخ ٣١آذار١٨٥٢):

أما بالنسبة لطلل بير — نمرود المصنوع من الزجاج ، والواقع غربي الفرات ، والذي يخال الناس عادة انه برج بابل، فقد صرح

لي الكولونيل رولنسون بأنه لا يعتقد أن استكشافه سهل إلا عن طريق لغم يشق انفجاره البرج إلى شقين ، ويفتح لنا داخله. وإذا كنت قد نجحت في ما بعد في عقد صلات طيبة جداً مع العرب ، أسياد الصحراء التي يقع فيهـــا بير – نمرود ، فلكي أستطيع القيـــام بعملية من هذا النوع ، فهل تأذنون لي يا معالي الوزير باللجوء إلى هـــذا الإجراء ؟ ثم هل بوسعي أن أطبق الأسلوب نفسه على أراضي الآجر الحي او المشوي ، الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الفرات ؟ ولا أخفيك أنه لو أن الإنـكليز الذين خابوا في مسعاهم فكروا في إجراء لغم في تلك الركام المغلقة لكنت أتمنى بأن أقوم بذلك قبلهم . ولكنني لن أقوم بشيء من هذا القبيل قبل الحصول على موافقتكم .

ولحسن الحظ انه بالرغم من موافقة الوزير المختص لم يرَ هذا المشروع النور! وكان على هذه البعثة أن تنتهي بكارثة . فقد كان من المفروض أن تنقل آثار بابل القديمة ، بالاضـــافة إلى تلك التي استخرجها بلاس ، خليفة بوتا ، من خرصباد بواسطة الطوافات ، والنقل النهري حتى مصب نهر دجـــلة . وكان وضع الأسطول النهري الصغير صعباً بسبب أنواء النهر ، وأعمال الأهلين العدائية . فقد غارت الآثار القديمة في غياهب نهر دجلة (١٨٥٥) .

ولاستنطاق خرائب بابل ، بقيت لنا إمكانية التنقيب في

العمق ، وهو تنقيب يزيل الأنقاض عن الأرض بشكل علمي طبقة بعد طبقة . وذلك كان عمل البعثة التي أتت في أعقاب بعثة فرانل .

تنقيبات كولديوي.— وفي نهاية آذار سنة ١٨٩٩ ،وبتشجيع من الجمعية الشرقية الألمانية ، أقامت في بابل بعثة كان على رأسها كولديوي ، ومكثت فيها حتى سنة ١٩١٧ . وقد كشفت هذه السنوات الثماني عشرة من العمل القليلَ من الآثار ، كما يتبادر إلى الذهن لدى زيارة متاحف اسطمبول وبرلين . ولكن هـــذه التنقيبات جعلت قضية إعادة كتابة تاريخ بابل والحياة فيها أمراً ممكناً .

٣ تاريخ بابل

لبابل موقع فريد في أهميته . فهي لوقوعهـــا من جهة على لطريق النهري الكبير الذي يشكله نهر الفرات ، كانت تربط بلاد بابل بسوريا وبالبحر الأبيض المتوسط ؛ وكانت تتصل من جهة أخرى ، بفضل تلك الطريق ، بآسيا الصغرى وببلاد فارس ، وتشرف على الطريق التي توصل إلى كرمنشاه عبر جبـــال زغروس . فقد كانت تقع في وسط الحوض الجنوبي لنهرين كبيرين يؤلفان بلاد ما بين النهرين . وبنيت على الضفة اليسرى لنهر الفرات الذي يحميها من الغرب في أقرب نقطة تفصله عن نهر دجلة الذي كان يقيهـا من جهة الشرق . وفي ما بعد ، انطبق وضعها المميز هذا ، على سلوقية وستازيفون . وتنعم بغداد اليوم ،

وهي تبتعد أكثر منها إلى جهة الشمال ، بالمزايا ذاتها .

فهذا الموقع المميز هو الذي جعل مؤسسي السلالة البابلية الأولى في حدود القرن التاسع عشر ، يتبنونها كعاصمة لهم . في حين ان بناءها سبق كثيراً تأسيس هذه السلالة ، التي عرفت بابل في ظلها انطلاقة كبرى. وفي أوائل عهدها كان يمتد خراجها إلى منطقة الأكاديين ، والساميين الحضر الذين احتلوا جزءاً كبيراً من بلاد ما بين النهرين حوالي القرن الخامس والعشرين ق. م. تقريباً .

شهرتها في ظل سلالة أكاد. – لقد اشتهرت بابل على يد أحد أولئك الملوك الذي كان يدعى شار – كالي – شاري ، والذي « وضع أسس معبد الآلهة أنونيت (عشتار أكاد) ومعبد الإله أ. مال في بابل». وقد كتب إسم بابل بطريقة الرموز ، وهو يقرأ باللغة السومرية : كا. دينجر. را (كي) ، وهو اسم ترجمه الساميون باب – ايلي (بالعبرية باب – ايل) الذي يعني « باب الله » . فقد كانت بابل إذاً مدينة دينية . وازدادت أهميتها خلال النصف الثاني من الألف الثالث واصبح احتلالها مكسباً مغرياً في عين الملك دنجي أو الملك شولجي من سلالة اور الثالثة (في القرن الثاني والعشرين) .

السلالة البابلية الأولى . – كان ذلك مباشرة بعد أن وقع

عليها اختيار السلالة الأولى ، التي يقال لها « سلالة بابل » . وقد أسس هذه السلالة شعب من الساميين البدو : « الذين لم يعرفوا البيوت » كما تقول النصوص ، وهو شعب يعود أصله إلى بـــلاد أمورّو (وهي منطقة على حدود سوريا) التي تدعى « بـــلاد الغرب » . وكان الساميون البدو ، وهم رعاة وأصحاب قوافل في الوقت نفسه ، يتنقلون في الصحراء ؛ وقد تسللوا إلى البلاد التي احتلها الحضر ، فنقلوا لهم بضائعهم ، وتوصلوا إلى السيطرة عليهم . وكان الوقت بعدئذ، ملائماً بشكل خاص لاحداث تغيير في السلطة . فالحروب التي أضعفت امبراطورية سومر واكاد وأدت إلى سقوط أور الثالثة التي حلت محلهــــا سلالتا اسين ولارسا ، أتاحت لهذا الشعب الطموح أن يقتطع جزءاً واسعاً من ذلك الميراث. فأسسوا فيه دولة اتخذت من بابل عاصمة لها. لكن هؤلاء الساميين البدو عند استيطانهم في تلك الأرض ، قدّموا الدليل على مدى فهمهم لمعنى الحكم . فقد أرسوا قواعد إدارة منظمة وعرفوا كيف يتخذون الإجراءات الضرورية لتحقيق عظمة مملكتهم. فحتى ذلك الوقت الذي حان فيه تأسيس مملكة بابل، كانت تشكيلاتهم السياسية لا يزال ينقصها التلاحم. ومنذ أوائل عهدها ، نشبت الصراعات فيها على تملك مراكز القوافل ومرابطها . أما المدن السومرية التي كانت في بادىء الأمر مستقلة

ويحكمها أمراء محليون، فقد ألفت أحياناً جماعات مؤقتة ، كانت مصالحها المتنافسة سرعان ما تفرط عقد تجمعها . ويبدو أنه حتى أثناء تأسيس امبرأطورية سومر واكاد لم يكن الشعور بالوحدة الوطنية يوحد بين تلك الحاضرات . فقـــد كانت الانتفاضات الداخلية تنفجر دون انقطاع ، ولم تكن البـلاد قد وصلت بعد إلى نضجها السياسي ، ولم يكن عمل الأسياد الدؤوب قد أتى ثماره بعد. ففي الوقت الذي كانت فيه موجة الغازي السامي على وشك ان تجتـــاح كل شيء ، اهتم آخر ملوك السومريين — الأكاديين ، الفخورين بانتسابهم إلى مهدهم الحضاري القديم الذي حمل الحضارة ، بجمع كل مـــا كان قادراً أن يظهر تقدم وعظمة أسلافهم . وقبل أن تنقرض مملكة سومر وأكاد تجلّت أهميـة العمل الذي أنجزته الأجيال السابقة ، منذ استيطانها على الأرض القرينية في جوار الخليج العربي. ففي هذه البلاد التي يهيمن عليها المجرى الغزير لنهري دجلة والفرات ، نجح الأهـالي بعد صراع عنيف في إقامة نظـــام للري ، وذلك بجر ميـاه هذين النهرين العظيمين ، مفسحين المجال بذلك لتنظيم الزراعة . فـــلم ينشئوا بادىء الأمر ، سوى واحات انتشرت فيهـــا ، بعدئذ حقول النخيل، والمستودعات ، ومراكز الأسواق التي أصبح غناها لقمة سائغة لشعوب أكثر فقراً ، أو أكثر جشعاً . ويعزى سبب

انقراض هذه الحاضرات إلى ضعف تماضدها . لكن هذا النقص في التلاحم بدأ يخف تدريجياً . وفي النهاية توصلت شبكات الأقنية التي كانت تحيط بكل مدينة إلى الالتقاء، نظراً لتشعبها. فقد انتشرت الأقنية في بلاد مـا بين النهرين على شكل شبكة هائلة. ووجدت المراكز المدينية المرتبطة بواسطة الطريق النهري نفسها انهـا ترتبط ببعضها البعض بشكل افضل من ارتباطها بواسطة الطريق التي تتبعها القوافل . فاختفت بذلك التجمعات الخاصة . وكان أفضل مـا قامت به السلالة الأولى في بابل هو قدرتها على استغلال النضج الاقتصادي للبلاد ، وعدم الكف عن تطوير هذا النضج . وكانت شبكة الري تتكامل من عهد إلى عهد . والملوك الذين يعطون لأحد سني حكمهم اسم الحدث المميز يشيرون إلى تلك السنة باسم سنة شق قناة معينة .

حمورابي . – كان حمورابي أعظم حكام هذه السلالة . فبعد أن سيطر على جميع مدن بابل الكبرى ، وطد الوحدة السياسية في البلاد . ولكي يؤمن الاستقرار للمملكة الجديدة ، مد فتوحاته حتى الفرات الأوسط ، حيث أخضع مدينة ماري وعدة مناطق أخرى تقع وراء نهر دجلة . وبالاضافة إلى كونه فاتحاً ناجحاً ، فقد كان أيضـاً إدارياً بارزاً . فنراه في مراسلاته يلح بشكل خاص على الضرورة العظمى لصيانة خطوط الملاحة . وقد حققت النمو الاقتصادي للبلاد فساعد بذلك على خلق الروح «القومية».

لكن ذلك لم يكن سهل التحقيق لو لم يحمل اسياد السلالة الأولى من بابل ، بلباقتهم الرفيعة ، مركز كل الحياة الدينية ، ومن إلهها مردوخ إلهاً « قومياً » . وقد أصبحت عبادة هذا الإله نوعاً من الالوهة السياسية الوحيدة التي كان يجب أن تندرج تحتها المتقدات القديمة . فمنذ ذلك الحين ارتبط مصير الإله مردوخ بمصير مدينة بابل . وازدهرت فيها حركة بناء الهياكل حتى آخر أيام حمورابي . وتركزت في بابل الحياة القضائية التي ارتبطت بالحياة الدينية أيضاً ، لأن قضاة الملك كانوا يقيمون فيها . وتبرز شريعة الملك حمورابي هذا التركيز في السلطة الملكية ، فالملك الذي يعمل لصالح الإله « العلي » هو الذي ينشر القوانين. فطاعة القانون الإلهي هي في احترام هذه القوانين ، وفي انتهاكها مجلبة للغضب الإلهي . فليس للعقاب الذي يطال المخالف طابع غير طبيعي فحسب ، بل ان شريعة حمورابي تعاقب المتمرد عقوبات فعلية . وتطال هذه الشريعة المجتمع المقسم إلى ثلاث فئات : ١ — الناس « الأحرار » ، وهم النبلاء وكبار الموظفين ، ومالكي الأراضي؛ ٢ — الفنانين الذين يدعون « الموشكينو » — (واصلها من كلمة « مسكين ») ؛ ٣ — العبيد ، وقد كان العبد بادىء الأمر ، رجلاً أو امرأة ، غنماً من الخارج أثناء حملة حربية أو أثناء غزوة ليستخدموا كعمال أو كخدم قسريين . إلا أنه لم يكن

بالامكان تأمين اليد العاملة بواسطة هذه الطرق فحسب ، ولذلك قام أفراد خسيسون بالبحث عن هذه اليد العاملة؛ ونتج عن ذلك أنهم توصلوا بواسطة الخطف والاقناع ، أو شراء الأشخاص التي لا عون لها، إلى إدخال تجارة ممقوتة أصبحت ممارستها من حقوق المواطنية ، ودخلت في صلب عاداتهم. وكان بالامكان بيع رجل حر بسبب ديونه حتى يكون قد وفى هذه الديون . وكان على سلالته أن تولد في ظل العبودية ، وتبقى فيها إذا لم يتوصل إلى تبرئة ذمته . إلا أنه متى توافرت له الامكانات كان له الحق في أن يفتدي نفسه . وكان بوسعه أن يرث وأن يتزوج حتى من امرأة حرة ، وهذا ما كان يحد من حقوق السيد على ذريته . وكان بمقدور المرء أن يبيع عائلة من العبيد ، وكأنه مُلك عقاري له .

كان السبب الرئيسي لهذا الوضع هو الحاجة الماسة إلى اقتناء العديد من العمال. ويبدو انه للسبب ذاته وضع ايضاً قانون التبني. فقد كان هذا القانون متبعاً عند البابليين الذين اهتموا بتأمين القرابين الضرورية للدنيا الاخرى، عندما تكون هذه الذرية قليلة العدد، ولكي يكون لديهم بالتالي يد عاملة عائلية أقل كلفة، وأكثر إخلاصاً للخير المشترك من الغرباء .

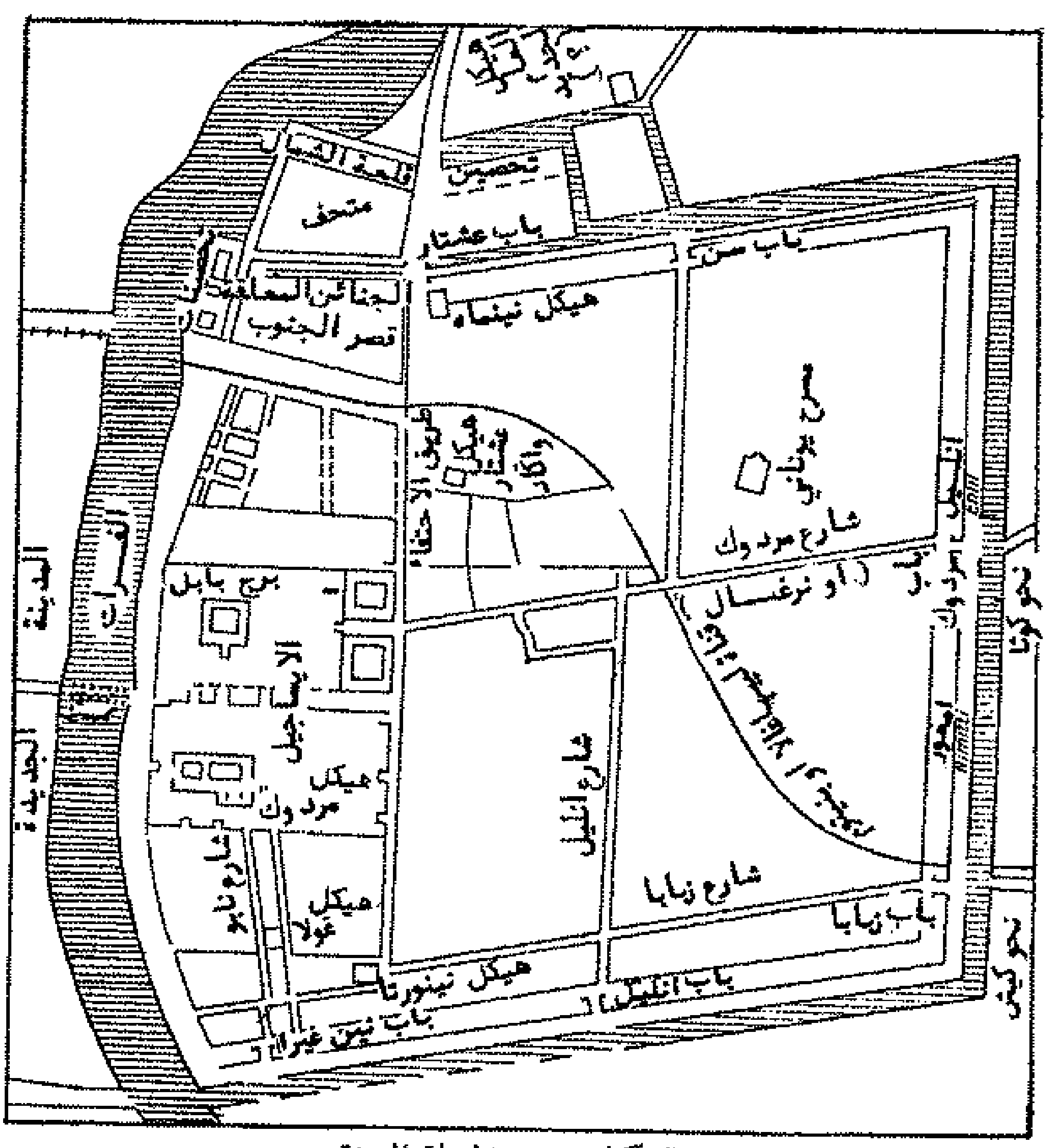
وكان قانون العمل منظماً بحيث يجب ألا تبقى معه أية قطعة

أرض بوراً ، وذلك تحت طائلة تغريم المزارع . وكانت ثروة أهل بابل وحياتهم بالذات تتأثر بحسن استعمال الأرض ، وخصوصاً بريّهم المنظم لها . فثمة قوانين دقيقة كانت تجبر المواطنين على الاهتمام بتنظيم السقاية التي كانت تنمي حقولهم ، والعمل بكل الوسائل على رفع الرمال الملازمة للأقنية بشكل لا هوادة فيه .

ولم يكن بالامكان إلغاء فرائض « أشغال السخرة » تلك . فكان على أصحاب الأملاك والأثرياء أن يرسلوا عبيدهم إذن ، أو خدمهم عوضاً عنهم . وكانت الأملاك الأميرية ذاتها تشمل الأراضي الواسعة والعديد من القطعان ؛ وكان العديد من العمال يكافأون على أتعابهم بزيادة الغنم والحبوب لهم . أما على صعيد المبادلات فقد كان الناس يتعاملون بشكل رائع . وليس ذلك لعدم توفر المال ، لأننا على علم بمبادرات حقيقية لتمويل شركات تجارية كانت تسيّر القوافل في ما وراء الحدود ، وغالباً ما كانت تدعمها بغزوات عسكرية لم يكن لديها من هدف آخر سوى فتح أسواق جديدة . وتدل عقود الشركات وعبارات التبني ، وتنظيم اقتناء العبيد الواردة في النصوص الخاصة أو الادارية ، وخصوصاً في شريعة حمورابي ، كيف أن هذه المونارشية [1] الشرقية قد

---

١ ـ المونارشية هي حكم الفرد (المترجم) .



الشكل ٢ — خارطة المدينة

ربطت إداريها بشبكة من القرارت ، وكيف قيدت حقوق ونشاطات الأفراد ، كما لو كان ذلك في دولة عصرية . ولدينا فكرة عن هذا التشريع المتطور الذي كان يقبل بأن يكون للنساء حقوق لم يتوصل الشرع اليوناني إلى الاعتراف بها ، كحق تملكهن بأنفسهن ثروتهن الشخصية عندما يكنّ متزوجات . إلا أنه للتعرف العميق على الحالات المتنازع فيها ، كان ينضم شيوخ المدينة إلى قضاتها للحكم في تلك الحالات .

السيطرة الكاشية . – حوالي القرن السادس عشر تقريباً ، تركت السلالة البابلية الأولى السلطة لجبليين من الشرق هم الكاشيون ، الذين حكموا بابل حتى القرن الثاني عشر . وقد سهّل استيطانهم لها الحملة التي قادها مورسيل ملك الحثيين ، الذي اجتاح بابل نحو السنة ١٥٥٠ ق.م. وقد حمل الحثيون تمثاليْ الإله مردوخ وزوجته زربانيت إلى هانا ، التي توجه إليها الملك الكاشي ، اغوم – كاكريمه ، ليبحث عنهما وليرجعهما بموكب عظيم إلى بابل . وقد سعى الكاشيون لارجاع بابل إلى كامل عظمتها . فخصصوا جهودهم لتجميل المدينة والمعابد . وقد وهب أحد هؤلاء ، وهو الملك نازي – ماروتش ، الإله مردوخ أراض في ضواحي بابل ، وقد بقي نص هذه الهبة محفوراً على أحد الأنصاب .

إلا أن قوة بابل انهارت تدريجياً ، ففرضت بـــلاد أشور سيطرتها عليها .

الحملة العيلامية والسيطرة الاشورية . — لقد علا نجم أشور اثر الحملة التي شنها على بابل أحد الملوك العيلاميين ، شوتروك — ناهونتي (حوالي السنة ١١٧٤) ق. م.

ومنذ نهاية الألف الثاني ق. م ، وحتى سنة ٦١٢ ق. م. ، قام البابليون بجهود يائسة للتخلص من التسلط الاشوري الرهيب ، لكن بلاد أشور سيطرت على آسيا القديمة خلال كل تلك الفترة . أما بابل التي لم تهـــدأ الثورات فيها ، فقد تحالفت مع أعداء الاشوريين ، وانتفضت عند كل تبدل في الحكم . وفي بداية عهد سرجون الثاني الأشوري ، أعلن ماردوخ — بلادان نفسه ملكاً على بابل بمساعدة العيلاميين . ولما كان ملك اشور مهتماً بالقضاء على أعدائه ، فقد تركه يحكم حتى السنة ٧١٠ ق. م ، وهي السنة التي انتقم فيها ، بينما فر مردوخ — بلادان هارباً إلى بلاد عيلام . وفي بابل ، أخذ الملك اشور بيد البعل سنة ٧٠٩ ق.م ، وحكمها حتى وفاته سنة ٧٠٥ ق.م.

نهب بابل على يد سنحريب . — كان على بابل أن تتعرض للغزو مرات عديدة . فكان ان اجتاحهـــا سنحريب بقسوة شديدة سنة ٦٨٩ ق.م :

لقد كان وقعي عليها أسوأ من وقع الطوفان

كما صرّح في كتاباته .

لكنه عندما اغتيل على يد أولاده ، وقع اسرحدون الذي خلفه ، وهو ابن كاهنة بابلية ، أسير شهرة مردوخ ، فرفع بابل من تحت أنقاضها .

وإننا لنجد في نقوش سنحريب عن خراب بابل ، و كتابات اسرحدون ، ابنه ، عن ترميم العـــاصمة ، وثائق عظيمة الأهمية تتجلى فيها العقلية البابلية بشكل فريد . ويروي سنحريب ان البابليين نصبوا «عبداً» على العرش،وانهم فتحوا كنز الايساجيل، هيكل مردوخ ، وأخـــذوا منه ذهب وفضة الإله وزوجته

ليقدموه لملك عيلام ، اومان — مانانو ،

الذي لا يتمتع بالفطنة ولا بالعقل ،

ليحصلوا على مؤازرته لهم ضد بلاد أشور .

فلما نهبوا الكنز الإلهي ليحصلوا على مساعدة العيلاميين لهم:

رآهم مردوخ ، وامتلأ قلبه غيظاً ، وثارت ثائرته ... ولكي يسحق البلاد ويقضي على شعبها ، وضع مخططاً رهيباً ...

فارتفعت من الأقنية أمواج كتلك التي ترتفع أثناء الطوفان...

فقضت على المدينة ...

وانتقلت معابد الآلهة والآلهات

إلى السماء ...

وعندمـا أصبح أسرحدون ملكاً ، قرر ترميم بابل . فسأل آلهة الوحي رأيهم في تلك القضية ، ولمـا لم يكن يريد إغاظة الأشوريين أتباعه ، فقد أعلن بأن غضب الإله مردوخ قد وقع ، وان الإله غفر لبابل خطيئتها ، لأن لوحة أقـدار المدينة التي كانت تشير إلى سبعين سنة من الخراب لم تكن تحمل سوى العدد ١١ ، ولما كان الوقت الذي يشير إلى نهاية هذه الفترة قد انتهى ، فقد استعجل اسرحدون عندئذ بإعطاء الأوامر لترميم مذابحها .

وقد كان هذا التاريخ معقولاً لأن الأعداد المدونة على اللوحات تبدلت مواضعها . وكان الترقيم لدى البابليين ، مصاغاً بطريقة حكيمة . فالعدد الذي يمثله مسمار عمودي اختير كوحدة ، ولكن هذه الوحدة كانت ذات قيمة متغيرة ؛ فوفقاً للمكان الذي كانت تشغله من اليمين إلى اليسار كان بوسعها أن تمثل الرقم ١،٦٠ أو تربيع العدد ٦٠ ، وكان العدد ٧٠ مكوناً من هذا الرقم الذي يلحق به عدد مكتوب ، بواسطة الاشارة ٧ وكان يساوي ١٠ ؛ فكان يقرأ ٦٠ + ١٠ = ٧٠ . ولكن إذا بدلنا موضع الإشارات بوضعنا الإشارة ٧ إلى الأمام ولكن وراءه ، أي وراء المسمار ، وهو الخط العمودي للوحدة ، كان بوسعنا قراءته على هذا الوجه ١٠ + ١ = ١١ . ولما كان قد تجلى تدخل الإله ، فقد أشار المجموع

الجديد إلى مدى فترة خراب بابل وفقاً للإرادة الإلهية.

ولمــــا توفي اسرحدون ، انتقل عرش بابل إلى ولده البكر شمش–شوم–أوكين ، وانتقل عرش اشور إلى ولده الثـــاني اشور بانيبال . وقـام ملك بابل بمحاولة انقلاب على أخيه ، فعرّض مدينته بمحاولته تلك لسخط شديد. ولما أيقن أن لا مفر له من الهلاك ، فضل الموت في قصره مع كل حاشيته ، والقضاء على أمواله التي ألقيت في النار التي أضرمت بنــاء لطلبه . وقد خلطت الاسطورة الأغريقية بين اسماء هذين الأخوين العدوين ، فروت لنا واقع مــــا جرى في رواية بعنوان « انتحار ساردنابال ... » .

وكان بإمكان المرء الاعتقاد بأن بابل قد هزمت ، لكن الموقف كان على وشك أن ينقلب رأساً على عقب .

سقوط نينوى والامبراطورية البابلية الجديدة . — وكان نبوبلاصر ، حاكم بابل ، يتحين الفرص لكي يحرر بابل ، عندما رأى في الميديين ، أعداء بلاد أشور الجدد ، حلفاء محتملين . فقد صبوا جهودهم ضد الأشوريين ؛ وسار جيشاهم نحو نينوى التي امحت نهائياً عن الخارطة ، سنة ٦١٢ ق.م . فأصبحت بابل لمدة تنيف على الثمانين عاماً عاصمة لولايتها .

وبعد سقوط نينوى ، ركز الميديون جهودهم على منــاطق

الشمال والشرق ، بينما ركز البابليون جهودهم نحو الغرب . وكان الاتحاد المصري الذي اتحدت به مملكة يهوذا سبباً لخسارتها ولسبي أهلها سنة (٦٨٥ ق.م) .

الفرس الأخميديون . — وفي سنة ٥٤٩ ق. م أعلن قورش نفسه ملكاً على الفرس والميديين، فترك للبابليين رعاية الممتلكات الاشورية وتأمين النظام فيها ، بينما استغل هذه الفترة من الهدوء لسحق أعدائه الأقوياء . ولما حان الوقت لذلك ، انتزع قورش صولجان الملك من يدي نابونيد الضعيفتين، سنة ٥٣٩ ق.م وبقيت بابل ، التي ألحقت بالامبراطورية الفارسية ، عاصمة إلى جانب سوزة وبرسيبوليس ، وكانت لا تزال شهرتها دون مثيل يوم استولى الاسكندر عليها .

٤ بابل العظمى

المدينة البابلية الجديدة . — ليس ترميم بابل عـــبر العصور موضوع بحثنا هنـــا ، لأن من بين الأبنية القديمة التي رممت أو التي أعيد بناؤها ، لم يبقَ لنا سوى بعض المعالم ، كما أنه ليس بوسعنا مطلقـــاً التعرف إلى هوية الأنصاب المصنوعة من الآجر والطين الحي ، « كالتماثيل ذات القواعد الفخارية » إلا من خلال بقاياهـــا الحديثة العهد نسبياً . فسنقصر عملنا إذن على وصف بابل العظمى في عهد نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ — ٦٦٢ ق.م) لأن آخر تدوين معروف كان في تلك الفترة التي تركت لنا آثاراً أكثر من سواهـــا ، ولأن آثار تلك الحقبة تطابق نصوص وأوصاف الكتّاب القدماء ، وهي آثار تظهر لنا خليفة نبو بلاصر مهتماً

بتجميل العاصمة ومتحدثاً بفصاحة كلية عن أعماله تلك ، في حين كان الرحالة في القديم كهيرودوت مثـــلا ، يتطرقون إلى ذكر روائعهـا بشيء من التفكه . وقد قدم العهد البابلي الجديد أروع انطباع عن وحدة هذه الحاضرة .

ضواحي المدينة وجبالها الغناء . — عند قدومه من الشرق، بعد أن يكون قد اجتاز قنـــاة النيل ، يقترب المرء من بابل . ويكون عليه عندئذ أن يقطع أطـــراف المدينة ليصل إلى الضواحي . فلقد كانت هناك في بادىء الأمر عدة قرى تقترب تدريجياً من المساكن الكبيرة المتباعدة عن بعضها البعض ، وتقع وسط الجنائن والرياض . — وكانت جنائن بابل ذائعة الصيت ، لكن ما لفت الأنظار في الواقع كان ، حدائق المدينة بالذات ، وبشكل خاص « جنائنها المعلقة » الشهيرة . وكان الفرس ، في ما بعد ، هم الذين نقلوا لنا عبارة « الفردوس » ، عندمـا كانوا يشيرون إلى تلك الجنائن التي كانوا يفتخرون بهـا ، والتي بقيت ملامح آثارها في هندسة المدن الفارسية الكبرى . وقد أتاح لنا التنظيم المدروس الحصول على تلك النتيجة الرائعة . وحفـــرت الأقنية لري الأراضي . وقديماً كما في أيامنا هذه ، كانت الشجرة التي تتفق افضل ما تتفق مع الشمس المحرقة والأرض الرملية ، هي شجرة النخيل التي تغرز جذورها في بطن الأرض لتصل إلى

الرطوبة ، فحين زرعت غابات النخيل العظيمة أصبح إنتاج بلاد مـــا بين النهرين وغناها وخصبها أسطورياً . ففي ظل شجرة النخيل تنظمت الزراعة، وفي كنفها تمكن الناس من غرس أنواع أخرى من الأشجار. ويعود انتشار غابات النخيل الواسعة، تلك التي لا تزال حتى اليوم تجاور ضفاف النهرين الكبيرين وضفتي شط العرب ، إلى الأحوال الطبيعية المستقرة في تلك البـــلاد . وقد أحاط البابليون حقول نخيلهم بعناية فائقة ، فثمة لوحة تشير إلى أحد تلك الحقول وهي بعنوان معبّر : « الحقل المروي تمامــاً » وقد أحصيت أشجار النخيل في تلك الحقول ؛ فكانت الأشجار الذكر أقل عدداً من الأشجار الأنثى ؛ وأشير فيهـــا إلى الأشجار المزروعة حديثاً وإلى المسافة التي يجب أن تفصل بينها. فلكي يحصلوا على الانتاج في وقت معين ، كانت تثبت الأزهـار الذكر مع لقاحها على الأشجار الأنثى ، ولم يفت القدماء ذكر هذه العملية . ويذكر لنـــا العديد من النصوص ، أغراساً غريبة كان الملوك قد نقلوهـــا إلى حدائقهم ، كانت تأتيهم أحياناً من أماكن بعيدة جدا . كما أن هذه الأشجار تشكل بساتين حقيقية من النباتات (وعددها يعادل بالتأكيد عدد حدائق الحيوانات) ولم يكن في تلك الحدائق إلا أشـــياء غريبة . وكانت أنواع الأشجار المألوفة هي : المشمش ، والتين والرمان. وكانت زراعة

الشعير أكبر زراعة ، حتى انه كان يستخدم كقاعدة نقدية ، إلى جانب زراعة القمح الذي يقال له « القمح النشوي » ، والذرة البيضاء . وفي البساتـــين كان يزرع البصل والكوسى والبطيخ الأصفر وكذلك « اللفت للإنسان والحيوان » . وكانت تعـوزز عملية تغذية الحيوانات كما هي الحال اليوم ، بنوايا البلح المجروش . وثمة وثيقة رسمية ،هي عبارة عن لائحة بأسماء الأغراس والخضار التي كانت متوافرة في جنينة ملك بابل مردوخ - بال - ادين (مردوخ بلادان) ، وهي عبـارة عن لوحة مقسمة إلى خانات تقابل فيهـــا . ففي إحداها : بصل ، وكرّاث ؛ وفي التالية : نعناع ؛ وفي خانة أخرى : لماعة ، وخس ، وشمرة ، وفي مكان آخر : برسيم ، وقرع . قلنا في ذلك بعض عينات عن الزراعة في الشرق .

وبعد أن يتجول المرء بين المزارع والحقول المزروعة ، يرى سور بابل يرتسم أمام ناظريه .

المدينة وأسوارها. - عندما يدور الحديث عن تقدير مساحة بابل ، التي لم يجر التنقيب فيهـــا إلا على الضفة اليسرى من نهر الفرات ، نرى الأرقـــام المتوافرة لا تتفق مع بعضها البعض . فالصعوبة التي تستوقف العلماء تزداد حرجاً ، لأن العاصمة احيطت بتحصين قوامه سور خارجي مؤلف من حائط أساسي وحـائط

أمامي ، يحيط بالضاحية ، وبسور آخر يغلّف المدينة ذاتها وهو مؤلف من حائط مزدوج . وفي حين يتكلم هيرودوت عن ٤٨٠ غلوة[١] لدورة المدينة ، يتكلم بستازياس عن ٦٥ غلوة للجانب الواحد ، أي ٨٩,٦ كلم لهذه الدورة ! ويتساءل المرء إذا ما كان هيرودوت قد أضاف إلى قياساته قياسات مدينة بورصيبا المجاورة ، إنما لا يبدو أن هذا الأمر مسلم به بسهولة ، ولذلك يعتقد بأن الريف المجاور كان مشمولاً ضمن هذه الأبعاد .

وتدل القياسات المأخوذة للخرائب ان جدرانها كانت تمثل مربعاً يبلغ محيطه زهاء ١٦,٥٠٠ كلم . فقد كان لبابل إذاً شكل رباعي يتفق عليه كل المؤلفين والمنقبين ؛ وكان قد تم تحديد اتجاهها بواسطة الزوايا ، كما هي الحال بالنسبة لمعظم مدن ما بين النهرين القديمة . فمن الغرب كانت تمتد على طول نهر الفرات الذي كان يشكل حصناً طبيعياً لها ، لذلك زود شاطىء الفرات على الدوام بتحصين خاص . أما من جهة الشرق ، فلم يكن هناك حصن طبيعي ، لذلك كانت هذه الجهة مثاراً للجدل من حيث اتخاذ إجراءات حماية فعّالة .

« الجدار الشرقي الكبير » . — لقد شيد نبوخذ نصر سوراً

---

١ ـ الغلوة هي وحدة لقياس الطول . (المترجان) .

كان يحيط من الشمال « بقصر الصيف » الواقع على تلة بابل . وقد دون تاريخ إنشائه على هذا النحو :

«لكي لا يكون باستطاعة العدو مهاجمة بابل عن قرب، ولكي يكون خط الدفاع قريباً من ايغور - بعل، أقمت جداراً للمدينة وهذا مما لم يقم به أي ملك قبلي ، وشيدت في ضاحية بابل ، شرقي المدينة ، جداراً أحطتها به . وحفرت أساسه كما ثبته والدي (نبو بلاصر) ، حتى مستوى المياه ، وبنيت حائطاً كبيراً من الرمل والكلس والآجر ، كان كالطود الوطيد ، وأرسيت أسسه في أعماق الأرض ، ورفعت قمته أكثر من قمة الجبل ، ولصيانته بنيت حائطاً آخر للدعم» .

وقد شمل هذا التحصين حائطاً أمامياً من الآجر الجي بالاضافة إلى حائط اخر .

وإلى الجهة الخارجية من حائط الآجر الحي، كان هناك أبراج للحراسة . وحين كشفت التنقيبات عن الأبراج ، لم تكن سماكة هذه الأخيرة سوى ٨,٥٠ م تقريباً، مما يجعل من الجائز أن يكون ارتفاعها حوالي ٣٠ م تقريباً ، بينما قدر هيرودوت ارتفاع أبراج هذا السور بـ ١٠٠ م وعرضها بـ ٥٠ م . وقد قدّر عدد أبواب المدينة بمئة باب (وهو عدد يماثل عدد الأبواب الموجودة في مدينة طيبة المصرية) ويبدو ان الكتّاب الاغريق قد كرروا

ما قيل لهم دون التثبت من ذلك . فلقد كانت مدينة بابل محاطة إذاً في بادىء الأمر بالتحصين الخارجي الذي كان يحيط بقصر الصيف في الشمال ، والذي كان يمتد غرباً نحو الفرات ، وكان ينزل من الجهة الأخرى ، في الشرق ، باتجاه الجنوب الشرقي ويدور بزاوية مستقيمة . فقد كان يشكل إذن منعطفاً ، ثم يمتد باتجــاه الجنوب الغربي ليتصل من جديد بنهر الفرات عند قرية الجمجمة القائمة حالياً . ففي هذه الجهة الجنوبية – الشرقية لايزال بوسعنا أن نرى السور الداخلي للمدينة وقد طوق بهذا التحصين الخارجي (الشكل ١ ، ص ١٨) .

سور بابل . – كان يؤلف هــذا السور شكلا متوازي الاضلاع ، وكان اتجاهه يتبع مجرى الفرات الذي يجري من الشمال إلى الجنوب ، وقد كان في الماضي منحرفاً لجهة الشرق أكثر من اليوم . وكان مؤلفاً من حائط مزدوج وكان الحائط الخارجي (شالمو) يدعى : « نيميتي – بعل » اي « مقر البعل » (و كلمة ان – ليل الذي اصبح بعلا والذي يعني السيد ، كانت تدل على الإله مردوخ) . أما الحائط الداخلي (دورو) فقد كان يدعى : « إيمغور – بعل » ، أي أن « البعل طالع خير » (الشكل ٢ – ص ٣٥) . وقد بني هذا السور في أحد العهود القديمة . كذلك اضطر ملوك بابل إلى ترميمه في معظم العهود ، وكانت الكتـابة

المحفورة على الآجر الذي عثر عليه ، سنة ١٩١٢ ، في كيش ، (وهو المكان الذي يجلب منه) تدل بوضوح على ترميم قام به سرجون الثاني الاشوري خلال الفترة القصيرة من حكمه لبابل :

إلى مردوخ السيد العظيم
الإله المرحوم
الساكن الإيساجيل ، سيد بابل ، وسيده

شاروكان ، ملك اشور ، ملك العالم ، « شاكاناك » البابلي ، ملك بلاد الأشوريين والأكاديين ، الذي عضد الإيساجيل والأزيدا ، واستخدم ذكاءه لبناء حائط إيغور انليل . فصهر قطع الآجر النارية اللامعة في قالب ، وبنى في الزنوزية ، على ضفة الفرات ، سداً بالقار والاسفلت من: الحائط ايغور — انليل والحائط نيميتي — انليل ، وبقوة ثبت على هذا السد أشياء كتراب الجبل المتراكم . فعسى الإله مردوخ ، السيد العظيم يتأمل هذا العمل الرائع ! وعساه يهب الحياة إلى الأمير شروكين ، وعسى تكون سنوات حكمه ثابته كأسس بابل !

وعديدة هي الكتابات البابلية الجديدة المحفورة التي تشير إلى هذا الإصلاح . وعن هذه الجدران ، كتب الملك نبوخذ نصر يقول :

جددت بناء ايغور — بعل ونيميتي — بعل ؛ وجدران بابل

العظيمة ورفعت الجدران التي تعلو جورتها كجبل من القـــار والآجر المشوي ...

وبنيت من ضفة الفرات حتى البرج الأعلى « باب عشتـــار » ، خطاً دفاعياً كبيراً من القار والآجر المشوي ... وأقمت أبراج حراسة فعّالة ، وجعلت من بابل قلعة لا تؤخذ.

وكان هذان الجداران اللذان يؤلفان سور المدينة موازيـــين أحدهما للآخر ويفصل بينهما مسافة ٧،٢٠ م . فقد كانت سماكة الحائط الداخلي (ايمغور - بعل) ٦،٥٠ م ، وكانت سمـاكة الحائط الخارجي (نيميتي - بعل) تقارب الـ ٤ م . ولوجوده على المنحنى الخارجي فإن شاطئـاً فسيحاً كان يشكل الحلقة الداخلية لجورة المياه التي كانت تتلقى مياهها من الفرات. وكانت جدرانهـا معززة بالقلاع . وهكذا كانت المدينة تتمتع بأسوار دفاعية متتالية .

وكان حائط شاطىء الفرات بسماكة ٨ م ، وقد بني في عهد نابونيد ، وكان يشكل سوراً تتخلله عدة مطلات على النهر .

وفي بابل ، كان تجهيز الأبراج البـارزة في الحائط الكبير المدعم مدار بحث لأن أبراجاً من هذا النوع تتيح لرماة النبـال إبعاد المهاجمين . وتدلنا الآثار إلى أن هذه الأبراج كانت مزودة بالشرفات . ويلاحظ المرء أيضاً أن عرض الحائط الكبير الذي

كان يشكل في أعلاه سطحاً حقيقياً يحيط بالمدينة ، كان يتيح للعربات ان تتلاقى في ذهابها وإيابهـــا ، وان تحمل التعزيزات للنقاط المهددة في الوقت المناسب .

فبعد دراستنا لهذا التحصين ، ندرك لماذا كان يعتبر القدمـاء احتلال بابل أمراً مستحيلا ! لذلك فإن أدباء الإغريق وسجل الأحداث البابلية ، وكذلك أسطوانة قورش أيضـاً ، التي عثر عليها في خرائب بابل سنة ١٨٨٢ ، راحوا يدونون كل على هواه احتلال بابل . ويتفق سجل الأحداث والاسطوانة على القول بأن بابل قد احتلت : « دون قتال »: ويزعم الكتـاب الإغريق أن الفرس حولوا عنها مجرى نهر الفرات . وتشير التوراة إلى أن بابل سقطت بغتة وهي في عيد ، وفي هذا يقول النبي ارميا :

« لقد مددت لك الشراك فسقطت ،

يا بابل على حين غرة » .

ويجدر بنا أن نتذكر الخائن غوبرياس الذي كان على علم تام بطبيعة الأمكنة ، وربما كان ثمة خطـأ في ذلك التحصين القائم لجهة المياه الآتية من الفرات والتي كانت تتدفق في القنالين وفي الجورة الكبيرة .

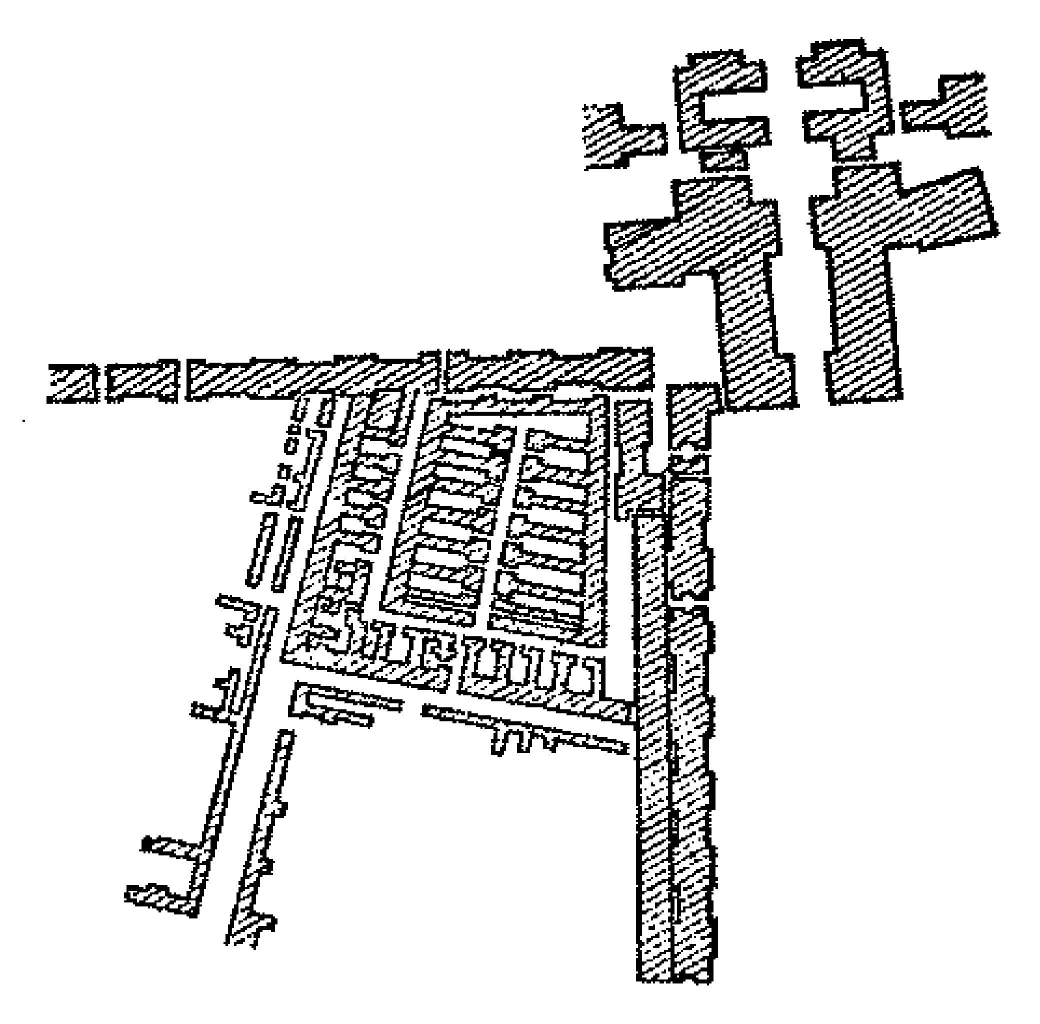
فللولوج إلى داخل المدينة ، كان على المرء أن يجتـاز السور المزدوج . وكان يتم هذا الدخول عادة عن طريق الأبواب .

الأبواب.— إذا كان الباحثون لم يعثروا على الأبواب المئة التي أشار إليها هيرودوت ، فإن التنقيبات قد عرفت سبعة منها . وكانت هذه الأبواب، التي تصل إليها طرقات كبيرة ومستقيمة ، والتي تتصل مباشرة بالطرق الرئيسية في المدينة ، من النوع العادي في بلاد ما بين النهرين . فما يميزها بالدرجة الأولى عن بيوتنا اليوم هو ترتيب مواقعها . فهي ليست مجرد فتحات في الجدار الكبير . إنها مرتبة داخل حصن بارز . ويتكون الباب من دهليز على جانبه غرفة مفرغة في الجدار الكبير تستخدم كغرفة للحراس . وينتهي دهليز الدخول إلى المسافة القائمة بين جداري السور . وفي الحائط الثاني ، يرى المرء نفسه تجاه حائط جديد يبرز مدخله كما في الباب السابق ، لكنه مكان الغرفة الجانبية هناك فناء قد فتح في حصن الباب . وربما كان هذا الفناء مخصصاً لاستقبال الزائرين وإخضاعهم للتفتيش، وكان ثمة حراس معدين للمراقبة كانوا يتخذون أماكنهم على الجدران . وقد امتد هذا الترتيب الذي اتبعه الشرق كله ، حتى إسبانيا ، كطليطلة مثلاً . وكان لأبواب بابل القديمة وللأبواب في الشرق على حد سواء أهمية كبرى في الحياة العامة . فقد كانت هذه ، بالنسبة للسكان ، مماثلة للأغوراء أو الفوروم . فعلى باب معين كان ينعقد « مجلس الشيوخ » ، وفي تركيا كان يدعى مجلس الوزراء قديماً

« الباب العالي » . وقد حفظ لنا الإنجيل في ما حفظ هذا التعبير حين تكلم عن « أبواب الجحيم » . — وكانت تنعقد فيه أولى جلسات المحاكمة البدائية . وكان يدعى الشاكون إلى الباب « × » وفي أغلب الأحيان إلى باب شمش المهدى إلى إله العدالة . — وكان التنافس التجاري ينطلق من الرصيف، فكان هذا الرصيف أيضاً يحدد الأسعار والأرباح التجارية ، وهو عبارة عن ديوان ومحكمة تجارية .

وكان يشار إلى أبواب بابل بأسماء معينة ، كما هي حال أبوابنا اليوم ، ولكنه كان لهذه الاسماء أهمية أخرى بالنسبة إلى البابليين القدماء . وبما أنه كان يعتقد بأنه كان يكفي المرء أن يسرد واقعاً معيناً ليكون عاملاً على تكملته . فقد كانت الأسماء إذاً نوعاً من الصيغ ، المختصرة نوعاً ما ، وهي ذات فأل حسن كان ينتظر تحقيقه . وعند لفظ أسماء الأبواب ، كان يراد بذلك كسب رضى الآلهة على ذلك المكان ، وعلى المدينة بشكل أوسع . وكان يقابل الجهات الأصلية ، التي كانت زوايا المدينة موجهة نحوها ، الوهات كان يبتهل إليها لرد الضربات عن هذا الجزء من المدينة . وفي ما عدا باب عشتار ، فإن الأبواب الباقية كانت تتقابل بشكل مزدوج وعلى هذا الأساس كان بابا الجنوب مهديين ، أحدهما للإله نين — اورتا ، إله العاصفة ، وهو في الوقت نفسه إله الزرع

والحرب ، بينما وضع الباب الآخر تحت رعاية والده انليل ، إله الجو وسيد البلدان ، وكان يدعى هـذا الباب : « انليل يثبت الملكية التي تأتي منه » ، وهذا الابتهال كان يذكرنا بأن هذا الإله السومري ، الذي أصبح بعلاً في اللغة السامية ، والذي لم يميز النـــاس بينه وبين مردوخ ، كان في ما مضى ذلك الإله الذي يكرس الملوك في هيكله في نيبور . وقد تخلت الأسرة البابلية الأولى عن هـــذه المادة ، فأصبح بعل — مردوخ هو الذي يكرس الملوك لبابل . ففي الشرق ، كان أحد البابين مهدى إلى الإله زبابا ، الذي تكاد تشبه طبيعته طبيعة الإله نين — اورتا ، والذي يماثل الإله مردوخ: «مردوخ القتال» ، وكان الباب الآخر موضوعاً بالطبع تحت رعـــاية مردوخ . وقد أهدي أحد بابي الشمال إلى الإله سن ، الإله القمر ، والآخر إلى الآ لهة عشتار ، الكوكب فينوس ، التي اعتبرت أحياناً ابنة سن (أو بشكل آخر ابنة انو ، الإله السماوي) ، ولهذا الإله شخصية مزدوجة ، فهو إله الخصب والحرب معاً . ومن جهة الفرات نجد في الجنوب باب شمش ، إله الشمس ، وإله العدل أيضـاً ؛ ونجد في الغرب باب الإله اداد ، إله الرياح والمطر الخيّر ، وفي الشمال باب لوغال — جيرا ، أحد أركان الجوزاء (المرتبط بنرغال ، إله الجحيم) . وأشهر كل تلك الأبواب باب عشتار لأنه رفع من تحت الأنقاض بشكل مدروس ، لذلك يكوّن المسافر عنه انطباعاً راسخاً .



الشكل ٣ ـ الجنائن المعلقة وباب عشتار

باب عشتار. -- يقع باب عشتار (الشكل ٣) -- كما رأينا سابقاً -- في القسم الشمالي من تلة القصر. وكانت الحفريات قد كشفت النقاب عنه تماماً، ولكن منذ ذلك الحين طمرته الرمال من جديد حتى منتصفه. وكان لا يزال ارتفاعه ١٢ م، لكنه لم يتيسر للمنقبين أن يحفروا بقدر كاف لكي يعثروا على

اسمه ، بسبب ارتفـــاع مستوى طبقة المياه الجوفية في مستهل القرن العشرين. ويقطع هذا الباب المزدوج جدار السور المزدوج، ايمغور - بعل ونيميتي - بعل ؛ وكان على جانب كل باب من تلك الأبواب أبراج تتقدمه . ولم تكن تلك الأبواب ملتحمة بالسور مباشرة لكن كل واحد منها كان يرتبط بالحائط بجناحين مدعمين. فكان هناك إذاً مدخل كبير في وسط حائط كل من الأبواب وفي الأبواب الجانبية الصغرى القائمة في أطراف الأجنحة . ولهـــذا الباب فتحات ثلاث ، وفي كتلة الباب المركزي نفسه كان بوسع المرء أن يسير إلى اليمين والشمال في قلب الحائط بفضل أبواب داخلية . وتتيح النافذتان الجانبيتان المجال للتجول بين حائطي السور. فقد كانت تلك الهندسة ناجحة حقاً . وكان حائط الباب مشيداً بكامله من الآجر المشوي ، بينما كان حـــائط السور من الآجـــر الحي . فلمعالجة تكدس وتمدد تلك العناصر المختلفة التركيب، تركت فسحة صغيرة فارغة بين أجنحة الباب والحائط نفسه. وهكذا لم يكن البابان مستندين الواحد على الآخر. لكن أكثر ما يدهش في ذلك الأثر ، كان طريقة التزين . فالزائر يقف مندهشاً أمـــام تلك الزينة من الآجر المطلي الذي يتلألأ في نور الشمس، أما الزينة البارزة في إجزاء السور السفلى فهي مسطحة في أجزائه العليا . ولا تزال ماثلة للعيان تسعة صفوف أفقية تمثل

حيوانات مقدسة (يبلغ عددهـا مئة واثنان وخمسون حيواناً) هي عبارة عن تنانين وثيران . ويعتقد علماء الآثار أنه كان هناك ثلاثون صفاً من الحيوانات المقدسة يبلغ مجموعها على هـــذا النحو خمسمائة وسبعين حيواناً. ولاحظ المنقبون أن باب عشتار كان قد خلع عدة مرات، لأن الرمال طمرت أسفله على مر الزمان. وقد عثر على ثلاث تبليطات متتالية ، كان أقدمها على عمق ٣ م من التبليط الثاني ، وأحدثها على ٤٫٥ م فوق التبليط الثاني . وقـد عوّضت هذه الـ٧٫٥٠ م من الفرق في الارتفاع برفع فتحة الباب، وهي أشغال يخبرنا عنها نبوخذ نصر بهذه العبارات :

« لما كان المدخلان قد أصبحا منخفضين جداً على أثر تعلية الشارع . فقد حفرتُ أرض ذلك الباب وثبتت أسسه من جهة النهر بالقار والقرميد المشوي وغطيته بقرميد من طرف باللون الأزرق كانت تظهر عليه الثيران الوحشية والتنانين . ووضعت فوقها عوارض من خشب الأرز لتغطيتها . ووضعت في أبوابهـا مصاريع أرز مصفحة بالنحاس ، ومفصلات وأصواص مساندها من البرونز . ووضعت على المدخل ثيراناً مختالة من البرونز ، وتنانين في حالة هيجان. وجعلت هذا الباب رائعاً ليثير إعجاب الشعوب قاطبة » .

وإننا نعترف على الفور بأن الملك نجح في ذلك نجاحاً باهراً.

وتمكن المنقبون أثناء تنقيبهم من ملاحظة صدق النقوش الصخرية الملكية ، وأدركوا أن الجدران التي تحت التبليط ، كانت تحمل الزينة نفسها التي تظهر فيها الحيوانات المقدسة .

إلا إنه إذا كانت أرض الباب قد ارتفعت على مجرى السنين، وان عدداً من الحيوانات قد اختفى لهذا السبب في الجزء الأسفل من الجدران ، فقد اهتم القدماء ، قبل تعلية الأرض ، بطلاء مـا برز من الحيوانات بالفخار والجبس لحمايتها . فمن ملاحظتنا بأن الصفوف السفلى لم توضع في قوالب شبيهة بالصفوف العليا ابتداء من الصف التاسع، تمكنا من وضع فرضية تقول بأن هذه الأجزاء لم تكن ماثلة للعيان ابداً ، وأنها كانت قد زينت بالأشكال السحرية المخصصة لحماية البناء المشاد. ولما كان الجزء الأهم في بناء معين هو ذلك الجزء الذي يتعلق بالأساس ، فقد وضع فيه وفي الأبواب أيضاً العديد من الطلاسم . وكانت كل هذه الزينة ترمي إلى هذا الغرض من الحماية ؛ وحتى عندما يبدو أن الهدف ليس سوى الزينة أو الهندسة ، فإننا ندرك أنه يتعلق بهذه التصورات بالذات. وكان التزيين في الجزء الأعلى الذي يعلو صفوف الحيوانات المقدسة متقطعـاً ، وينتهي بإفريز من غصون النخيل البيضاء الصفراء اللون في وسطها . وكانت الألوان الزاهية وغير الواقعية تعطي للحيوانات الشكل الجميل المرغوب . فعلى هذا النحو كان

جلد الثور أزرق ، وكان جسمه مسمراً ، لكن ما أذهل القدماء الذين لم يفهموا تقنية رسم البابليين ، كان تمثيل الحيوانات بملامح قاسية بحيث لا يظهر لها سوى قرن واحد، وكان هذا القرن بمرفقهم يغطي القرن الآخر . فقد كان هذا التصرف في أساس وجود أسطورة « القارن »[1] وهو حيوان أسطوري قد لعب دوراً في مصورات القرون الوسطى . وتنتمي صورة الثور المقدس في باب عشتار إلى قائمة الصور السومرية السامية القديمة . وقد جعلته القوة الطبيعية التي يمثلها مشاركاً للآلهة المتحكمة بالقوى الحياتية ، والطبيعية ، وشريكاً بشكل رئيسي لتلك القوى التي كان لها علاقة بالتقلبات الجوية ، كإله العاصفة أداد ، وقبله بفترة بعيدة الإله انليل. ونحن نعلم أيضاً أن صفات الآلهة قد انتقلت إلى الإله مردوخ مع ما رافقها من امتيازات. ولكن الصفة المميزة لمردوخ هي كونه تنيناً . والتنين هو صورة نموذجية للعقل البابلي الذي كان مستعداً لتقبل الأفكار البعيدة جداً عن الواقع، كما تشهد على ذلك الثيران المجنحة ذات الرأس البشري، الموجودة في متاحف اوروبا .

---

١ ـ القارن هو حيوان اسطوري على شكل حصان كان الأقدمون يعتقدون بأن له قرناً وسط الجبين . (المترجم) .

وقد توصل الفنانون في إنتاجهم أيضاً إلى نتيجة غير منتظرة ومستغربة تعود إلى مؤالفة هذه الشعوب مع الكائنات الهجينة، والغريبة، وإلى الممارسة الطويلة لأولئك الفنانين الذين مارسوا تلك الأعمال العملاقة.

وكان لتنين مردوخ جسم ثعبان. ويذكرنا رأسه برأس الأفعى التي لها قرون، نظراً لوجود نتوأين في رأسه، وكان ذيله مغطى بحراشف، وقائمتاه الأماميتان قائمتي أسد، وقائمتاه الخلفيتان قائمتي نسر. وكانت مصورات السومريين قد مثلت هذا الحيوان الأسطوري المنتصب وقد أخذ بين قائمتيه الأماميتين بعض الشعائر. وقد ظهر في ذلك المكان ماراً، ويمكن الظن بأنه كان على علاقة بالآلهة التي تتحكم بالتحركات التي تحت سطح الأرض. وهو يذكرنا بحيوان ما قبل الطوفان. ويبدو وكأنه خلد في هذه المناطق إلى درجة توصل عندها إلى الظهور على أولى الوثائق في أراضي بلاد ما بين النهرين المنخفضة، وفي بلاد العيلاميين (جنوبي بلاد فارس).

وبعد أن يعبر المرء هذا الباب المزدوج يصل إلى طريق مستقيم تخترق القصر من الشمال الغربي إلى الجنوب — الشرقي؛ وكانت هذه الطريق طريق الاحتفالات.

طريق الاحتفالات. — لقد كان هذا الشريان الكبير يؤدي

إلى معبد الإله مردوخ. وكان وسعه ٢٢ م. وكان محاطاً على مدى ٣٠٠ م. تقريباً بجدارين سماكتهما ٧ م. وكانت هذه الجدران التي يمر المرء بينها ، مزينة بالآجر المطلي بلون أزرق غامق وعليها مجموعة مؤلفة من ستين اسداً من كل جانب . كانت تظهر وكأنها ترافق الاحتفالات،ففمها مشدوق وذيلها مخفوض ومشرع للهواء. وكانت رسوم من الورد شبيهة بتلك التي كانت تزين باب عشتار تزين ما انخفض من هذه الجدران وما ارتفع . ولما كانت صورة الأسد مرتبطة بصور الآلهة عشتار فقد أشير إليه هنا بوضوح . وأمام هذه المجموعة المشرقة كان يشعر المرء برهبة شديدة. أبواب تعلوها رسوم من الورد الأبيض يندلق على فراش أخضر ، مزينة بباقة غريبة الألوان : ثيران فاقعة اللون بكساء أزرق ، وتنين رمادي مزرق ، بينما تستلقي في الشارع أسود مشرقة الطلعة ، فاقعة اللبدة على فراش من الزرقة ينمشه وشي من الورد الأبيض.

ونجد هذا المشهد الزاهي الذي تبعث فيه الحيـــاة شمس الشرق ، في جوامع أصفهان الرائعة أو في جامع عمر في القدس لكي لا نذكر غيرها من الجوامع .

وتمتد من ثم طريق الاحتفالات لتصبح شارعاً كبيراً ينتهي عنـــد باب نين - اورتا . وبموازاة ذلك الشارع وحتى وسط المدينة يمتد شارع الإله سن، وشارع الإله انليل. ويؤدي كلاهما ،

الأول الآتي من الشمال ، والآخر الآتي من الجنوب ، إلى شارع الإله مردوخ الذي يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب، وينتهيان عند باب هيكلها الكبير . وكانت تحد كل هذه الشوارع أحياء أشير إلى أسمائها في اللوحات التي تتحدث عن طبيعة أرض بابل، وإلى جانب هذه الشرايين الواسعة يتيح لنـا عدد من الشوارع الصغيرة المتعرجة ان نسلك تلك الطريق في الظل . ويفترض ان تكون كل هذه الشوارع شبيهة بالشوارع الصغيرة التي تسلك اليوم في بغداد ، والتي تتيح المرء أن يتجنب حرارة الشمس .

أحياء المدينة . — لم يكن إسم بابل المألوف (كا. دينجير . — را (كي) : بابيلي) « باب الإله » هو الاسم الوحيد المستخدم للإشارة إلى هذه المدينة ، فإذا كان اسم اري — دوع او أري — شار الذي عربناه باسم « المدينة العامرة أو « مدينة الكل » يبدو وكأنه نوع من الاستعارة ، كتسميتنا باريس باسم « مدينة النور »، فثمة أسماء أخرى تشير إلى الأحياء الرئيسية في العاصمة أطلقت على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء . وهكذا فقد كان الـ « اي . كي » على ما يبدو، منطقة الأقنية الهامة وكان الجيش — غـال يدل على المكان الذي كان فيه الرواق الكبير ؛ وكان الـ دين — تير — كي في السور المقدس يدل على «غابة الحياة» وكان الشو — ان — نا « اليد السماوية » ، « يد السماء » أو

« الرحمة السماوية » ، معنى فاتتنا معرفته .

ويبدو كأن العدد سبعة (ايمين) وهو عدد مقدس ، لا يزال معناه غامضاً ، ولكنه قد يكون ربما في أساس الأساطير العربية التي رواها ياقوت ، والتي يفترض أن يكون بموجبها في بابل سبعة أعمدة في كل منها معجزة معينة .

ونعرف قائمة بأسماء الأحياء اختصرت على هذا النحو :

يوجد في بابل بشكل إجمالي ثلاثة وخمسون هيكلاً لكبار الآلهة ، وخمسة وخمسون هيكلاً لمردوخ ؛ وبولفاران ، وثلاثة مجاري مياه ، وثمانية أبواب للمدينة ، وأربع وعشرون جادة ، وثلاثمائة هيكلاً للايجيجي — (الوهات الأرض) — وستمائة هيكل للانوناكي — (الوهات السماء) — ومئة وثمانون مذبحاً للإلهة عشتار ؛ ومئة وثمانون للآلهة نرغـال — (إله الجحيم) — وللإله اداد — (إله العاصفة) — واثنا عشر مذبحاً آخر لمختلف الآلهة :

كل ذلك موجود في تلك المدينة .

فأعداد الهياكل المشار إليها والعائدة لمختلف الآلهة هي إذاً ثلاثمائة ، ستمائة ، مئة وثمانون ، وإثنا عشر وقد يكون لها ربمـا علاقة بالأعداد المقدسة .

الأقنية. — من بين مجاري المياه الثلاثة المشار إليها يفترض أن

يكون منها نهر الفرات ؛ تبقى إذن قناتان كبيرتان لعبتا دوراً مهماً في حيـاة البابليين : الـ « اراهتو » والـ «ليبيل هاغالا» . وتتجاوز قنـاة الاراهتو الفرات في مجراه عبر المدينة ، وتجري مثله من الشمال إلى الجنوب . والتقاء الفرات بالاراهتو في الشمال كان يحيط بأحد أحياء وسط بابل حيث توجد الآثار الكبرى ، مثل الـ أي — ماه وقصر نبوخذ نصر . وفي أقصى الجنوب قناة التقاء النهر بالاراهتو ، وقد كانت تدعى قناة « شروق الشمس » أي ، الواقعة إلى جهة الشرق ، وهي تدعى : « ليبيل هاغالا » أي « خيراً عميماً » ، وكانت موسومة بالدور الذي كان يتمنى لها أن تقوم به .

وقد أشار الملك نبوخذ نصر في أحد نقوشه إلى الترميم الذي أجراه عليها بقوله :

«أما بالنسبة لليبيل هاغالا ، القناة الواقعة شرقي بابل، فقد كانت خراباً ، وقد سدت مجراها مجموعة من البقـايا . كما أنها امتلأت بالأنقاض . فقد بحثت عن مجراها الأصلي . فبنيت لها من شاطىء الفرات وحتى شارع ايبور — شابو — الذي يعني اسمه : « عسى ألا يتضايق ابداً — مجرى من القار ، والآجر المشوي . وفي ايبور — شابو ، شارع بابل المخصص للاحتفـال بانتصار

مردوخ ، سيدي العظيم، نصبت جسراً على القناة عندما وسعت مجراها .

والى الجنوب من ليبيل هاغالا كانت المنطقة الواقعة بين الفرات والأراهتو حيث بني الايتامانكي والايساجيل .

وقد هدم سنحريب هذه المدينة حين خرّب أقنيتها ، كما أشرنا في الصفحات السابقة .

جسر الفرات الكبير . – عندما غيّر الفرات مجراه إلى الغرب طغت مياهه على ما كان يدعى ضفته القديمة اليمنى وأخلى قسماً من ضفته اليسرى. وهذا ما أتاح لنا العثور على آثار المشاريع الكبرى التي نفذت في القديم على شواطئه ، وأتاح لنا بشكل خاص دراسة بنية الجسر الكبير المنصوب من ضفة إلى أخرى في وسط المدينة تقريباً . أمـــا الأعمدة المبنية من الآجر المشوي والاسفلت . فهي على شكل مكوك له زاوية بارزة من الأمـام والوراء لقطع المجرى . وهذه الأعمدة هي أكثر اتساعاً عند القاعدة منها عند الأقسام العليا . ويبلغ طولها ٢١ م في اتجـاه المجرى وسماكتها ٩ م . وقد كانت معززة بواسطة ألواح من الخشب كانت تستند على تجهيز آخر من الطبيعة ذاتهـا مخصص لحمايتها من الصدمات العنيفة . وقد عثر المنقبون على سبعة من

تلك الدعائم . ويجدر بنا أن نعجب من أمر المهندسين المعماريين البابليين الذين حلوا مختلف المشاكل التي تطرحها قوة التيار ، بينما لم يتيسر لبغداد حتى السنوات الفائتة سوى جسر من المراكب . وقديماً كان على تلك الأعمدة ، التي عثر عليها المنقبون زخرفات من الحجر قد اختفت بمرور الزمن . ويفترض من خلال وصف هيرودوت (الفصل الأول، الفقرة ، ١٨٦) وديودور (الفصل٢، الفقرة ٨) ووفقاً لما جاء عند ستازياس ، بأن يكون هناك جسر من الحجر . فحسب قول ديودور كانت قميص الجسر مؤلفة من ألواح من النخيل مغلفة بأخشاب الأرز . وكانت مدعمة بجسور من الحديد ذي الوصلات الغارقة بالرصاص المذاب ، كما يصف ذلك ديودور أيضاً . وكانت تلك الوسيلة مألوفة في القديم .

وقد أدهشت روائع الفن البابلي الإغريق كما أدهشت علماء الآثار أيضاً . ففي جروان (العراق) ثمة قناة بطول ٢٨٠ م وعرض ٢٢ م كانت تقطع مجرى ماء صغير بفضل جسر من خمس قناطر من الأقواس القوطية بأعمدة تتصل بدعائم حائطية بشكل زوايا . وقد تطلب بناء هذه القناة مليونا حجر حجم الواحد منها ٥٠ سم٣ . وقد نفذ هذا العمل الجبار حوالي السنة ٧٠٠ ق. م. ليزود مدينة نينوى بالمـــاء بشكل أفضل : وعلى ٥٠ كلم ،

وعلى مسافة طيران عصفور ، حصر المهندسون منـــابع الغومل وخرقوا الصخر بفتح نفق ارتفاعه ٢٠ م . وكانت تطرح كل تلك الأشغال على شكل مسائل هندسية في المدارس تلك الأيام .

٥ حياة البابليين

حين نحاول تذكر حياة قدماء البابليين ، يمكننا مثلاً أن نستلهم حياة أهالي بغداد اليوم .

الحياة التجارية . — لا نزال نجد في أيامنا هذه « تجمعات اقتصادية » بالمعنى الحقيقي الذي نراه في « اسواق » طهران ، وبغداد ، واسطمبول ، لكي لا نذكر مدناً أخرى . فهناك يتجمع البائعون أصنافاً أصنافاً ، بحيث تكون هناك شوارع بكاملها للجلود ، أو للأغراض الحديدية أو للمنسوجات ، وللعطور أو السجاد .

وكانت تجارة البابليين الخارجية مزدهرة ، فكانت الصادرات تعتمد ، كما في أيامنا الحاضرة ، على التمور المجففة ، أو المحفوظة

بالزيت وقد استعملت لمجموعة من الأغراض : فهي طعام للناس وللحيوانات التي كان يقدم لها نواياه المطحونة. وكانت تمزج أيضاً بسمنة الجمل فيصنع منها مأكولاً طيباً . وكانت ثمرة التمر تلك ترسل إلى كل أنحاء العالم المعروف ، وقد امتدح جميع الكتّاب القدماء الخصب العجيب في بابل . فقد كانت أرضهـا يومذاك مروية رياً غزيراً . وكان القار مادة تُصدّر . فقد استعمل في اللياط [1] والغراء واللحام ، وكمادة للتحنيط أيضاً . وكانت تغطى به أرض الهياكل، والقصور، والدور الجميلة. وقد استعمل النفط أيضاً ، الذي دعاه البابليون « زيت الحجر » ، دون تكرير بالطبع ، لأنه لم يعثر على ما يشير إلى ذلك . وكانت بابل تصدر الصوف ، وقد تم استثماره عن طريق العديد من المصانع . أما النسيج الذي دعاه الإغريق «كوناكاس» فهو نسيج من الصوف لا نزال نصادفه في أيامنا هذه ، وهو يتخذ شكل الفرو المتموج. وقديماً كان نسيجهم المطرز مشهوراً جداً ، حتى ان الإغريق والرومان أطلقوا على التطريز اسم «صنع بابل» . وقد دل النقش البارز القديم بدقة على رسوم سجاد وأقمشة ، وآثار متاحفنا هي آثار ناطقة في هذا الصدد . فنحن نجد فيها نماذج زخرفية رائعة

---

١ ـ اللياط هو خليط من الرمل والكلس (المترجان) .

جديرة بأن ينتج منها اليوم . ولقد قام النحاتون في ما بعد ، أيام الساسانيين ، برسم لوحات صغيرة حقيقية على أثواب الملك ، ورجالات بلاطه . وتؤكد قطع القماش التي وصلتنا من تلك الحقبة ، تلك الزخارف الموجودة على النقش البارز . ويقدم لنا الشرق المعاصر هذه الوسيلة أيضاً لكي نلم نظرياً بصناعة المعدن المصنوع والموشى بواسطة الحفر ، وليست صناعة معادن النحاس اليوم سوى تقليد لتلك الصناعة ؛ أما شغل الجلد ، الذي وصل انتشاره أيضاً حتى قرطبة في إسبانيا ، فلا يزال ظاهراً للعيان في آثار النقش البارز بحيث سروج الخيل وبرادعها تقدم لنا تنوعاً في الديكور ثرياً جداً . وكانت صناعة الخزف أيضاً متطورة جداً ؛ فبالإضافة إلى المواعين المألوفة ، كان يتم صنع أوعية كبيرة للتمور ، وللحبوب ، وللخمر وحتى لصنع التوابيت . وكان لأدوات الزخرفة العديد من الاسواق ؛ فكانت تستعمل لتزيين الأبنية ، ولقد أنتجت أدوات ذات مستوى أرفع من أدوات الطين البسيطة . وتذكرنا الآنية الخزفية البراقة المظهر ، والتي انتجت في ما بعد ، بآنية العهد البابلي الجديد . وكانت صناعة السلال أحد فروع نشاط البابليين القدماء ؛ وكان يصنع من الألياف المجدولة من شتى أنواع قصب المستنقعات والأقنية ، العديد من الأغراض : كالقفف ، والسلال ، والسياجات ،

والكراسي ، والحصر أيضاً الذي كان يستخدم كشراع للمراكب ، وكبسط للأرض ، أو لأسفل الجدران ، وكخيم لوقاية القطعان ، وكبرادي لتغطية منافذ الأبواب العليا ، ولدفن الموتى . وكانت صناعة الحلي متطورة جداً . وكانت تنقش الزخارف في أعلى المعالم الأثرية على أيدي الفنانين . وكان للمجوهرات مدلول سحري . فكانت تنقش عليها نقوش رمزية ، ويلاحظ المرء على ألواح النقش البارز العقود والقلائد التي تزين رقاب وأذرعة الجنيات والرجال على حد سواء . وبهذا الصدد حفظت لنا الأيام اتفاقية وجدت في سجلات نيبور تعود إلى المصرفي الثري موراشو ، يطلب فيها من صانعي المجوهرات الذين اشترى منهم خاتماً مرصعاً بزمردة ، بأن يكون الترصيع مكفولاً لمدة عشرين عاماً . وكان ثمة مهنة ، قليلة الانتشار في أيامنا ، هي مهنة حافر الاختام . فقد كانت هذه المهنة في بابل أكثر المهن رواجاً ، لأنه تعيّن على كل فرد أن يملك ختماً يكفل إمضاء موقعه ، ويكون بالنسبة له بمثابة طابع ذاتي . وقد تناهى إلينا أن الوثائق المكتوبة كانت تحرر على ألواح من الفخار بيد كتّاب محترفين . وان الإلمام بالكتابة المسمارية البالغة التعقيد لم يكن في متناول الجميع . لذلك كانت الوثيقة المحررة على هذا النحو وثيقة غير شخصية . ولأنه كان يفترض فيها ان تكون ذاتية ، لذلك وجب أن تحمل

ما يحملها مرتبطة بصاحبها . وإلى جانب أسماء أصحاب المنافع كانت اللوحة تحمل بصمة خاتم كل فرد منهم ، فقد كانت تباع إذن هذه الخواتم وعليها اسطورة معينة يختارها الشاري وتمثل في أغلب الأحيان مشهداً دينياً ، كان يحفر عليهـا إسم صاحبها. وحين لم يكن للمرء خاتم محفور عليه اسمه ، كان باستطاعته استحداث خاتم معين باسم المالك وباسم ابيه ، دون ان يكون قد حفر عليه أي مشهد معين . وبحوزة المتاحف مجموعة كبيرة وقيّمة جداً من هذه الآثار الصغيرة ؛ وهي تتيح لنا لوحدهـا أحياناً أن نعطي فكرة شاملة عن عصر امحت كل معالمه الأثرية المهمة . وقد زينت هـذه المعالم بمواضيـع دينية هي بشكل من الأشكال رسوم للرغبات التي يأمل المؤمن بأن يراها تتحقق ، وبمـا أن هذا الخاتم كان على علاقة مباشرة مع مالكه ، وكان ملتصقاً بصدره ، فقد كان يستعمل كتميمة اكثر مما كان يستعمل كتوقيـع . وكان من المألوف وضعه في دعائم أسس الأبنية قرباناً للآلهة . وكان هذا الخاتم يوضع مع الميت في قبره ، وغالباً ما عثر على العديد من الخواتم في القبور . وقد جاء ذكر هذه العادة في « نشيد الأناشيد » حيث تقول الحبيبة :

ضمني كخاتم على قلبك
وكخاتم على ذراعك ، لأن حبي

قوي كالموت (الفصل الثامن ، الفقرة ٦).

أما بالنسبة لمهنة الكاتب ، فقد كانت ذات مستوى أرفع كما يبدو ، من مستوى كاتب الدولة في الماضي .

ولتذكر الحياة التجارية في بابل ، بوسعنا أن نلجأ إلى الوصف الرمزي ، في رؤيا القديس يوحنا ، « للتجارة » في بابل :

« تجار الأرض يبكون ، وهم في حداد على تجارتهم ، لأن ما من أحد يشتري إطلاقاً بضاعتهم من الذهب ، والفضة ، والحجارة الكريمة ، والجواهر ، والكتان الناعم ، والارجوان ، والحرير ، والقماش القرمزي ، وكل أنواع الخشب العاطر ، وكل أنواع الأغراض العاجية ، وكل أنواع الأدوات الخشبية القيمة جداً ، والنحاس ، والحديد ، والرخام ، والكافور ، والطيب ، والعطور ، والمر ، والبخور ، والخمر والزيت ، والدقيق الناعم ، والقمح والثيران ، والنعاج ، والخيل والعربات ، والأجساد وأرواح الرجال » .

النقل بالمراكب النهرية . ــ يعتقد المؤرخون بأن حركة المرور ، التي كانت تجري في الماضي على ضفاف بابل ، كانت كثيفة جداً . وكان ثمة نوعان من النقل بواسطة المراكب : « القفف » و « الكلك » ، ويطلق إسم القفف على نوع من السلال المستديرة التي تحمل على الرأس . والقفف بشكل مفصل ، هي أوعية ضخمة مستديرة ذات حافة منتفخة تذكرنا بشكل طبلة

معينة ، مصنوعة من الأسل[1] المجدول والمحكم الشد ، وأسفلها مغطى بالقماش ، والجلد ، ومسدودة حزوزها خاصة ، بشكل كثيف بالقار الذي يضاف إليه التراب الناعم جداً ، والمكدس بعناية بغية الحصول على قدرة حقيقية لمواجهة النش، وبالرغم من وزنه ، فإن هذا الزورق يطفو بشكل كاف لتحمل ثقل معين ، وغالباً ما تنقل القطعان بهذه المراكب. ويقوم بقيادة القفة رجل أو رجلان بفضل مجذاف خلفي ويمنعانها من أن تنقلب على نفسها عند انحرافها. ويندهل المرء أمام مهارة قادة المراكب المحليين حين يقودون القفة المحملة إلى نقطة يكاد فيها الماء يلامس سطحها ، وهم حين يتنقلون على طول الضفة يتوصلون أحياناً إلى السير بعكس التيار ! ويعثر المرء على هذا النوع من المراكب مرسوماً على النقوش الأشورية التي تعود إلى النصف الأول من الألف الأول . وهي تنقل عربات الحرب وبعض السجناء . وأنواع المراكب التي تمخر نهر دجلة في بغداد ، هي نفس الأنواع التي نراها في تلك النقوش . ويمكننا ان نعتبر من المؤكد أن قدماء البابليين مثلهم مثل أهل بغداد اليوم بالذات ، الذين يشاهدون المراكب على نهر

---

١ ـ الأسل هو نوع من النباتات العشبية التي تستعمل اغصانها لصنع السلال (المترجمان) .

دجلة ، كانوا يشاهدون المراكب المحملة ذاتها على نهر الفرات .
والنوع الثاني، الكثير الانتشار أيضاً هو «الكلك» ، وهو بالواقع طوافة عززت قدرتها على العوم كمية معينة من الضروف التي ملئت بالهواء ، وأثبتت في أسفل الطوافة . وقد صنعت هذه الضروف من جلد الغنم التي قطع رأسها وأطراف قوائمها. وقد أثبت مرداف طويل في مؤخرة الطوافة ، وهو يستعمل كدفة . ويقوده قائد ثاقب النظر ، فيبعده عن الضفتين — وعن تلال الرمل . وبوسع الكلك نقل أحمال هائلة . وقد استعملت انواع الطوافات . هذه لنقل الآثار القرصبادية إلى جانب الثيران المجنحة التي تزين صالات متحف اللوفر ، والتي كانت يصل وزنها إلى حدود الـ ١٢،٠٠٠ كلغ .

ويقتصر استعمال الكلك على هبوط النهر ، فحين يصل إلى جنوبي العراق تفرغ البضائع ، ثم تفكك أخشابه . ولقلة الخشب في الجنوب يباع هيكل الطوافة ، وتفرغ الضروف في الهواء ، وتطوى ، ثم تحمّل على الحمير التي تسلك طريق الشمال ، حيث يجيء صاحب المراكب لنقلة جديدة .

ولقد كان النقل بواسطة المراكب مزدهراً جداً في أيام بابل. فنظم استئجار المراكب ، واستخدمت تصاميم البناء المفصلة تماماً مصطلحات بحرية تقنية ليس بوسع الباحث أن يعثر دائماً على

ترجمة لها .

وقد أطلق السكان القدماء في بلاد ما بين النهرين على النقاط الأصلية رمزاً هو رمز الريح ، ونستطيع أن نشبهه ربما بشراع. وثمة نوع ثالث أيضاً لا نزال نشاهده في أيامنا هذه ، هو تلك المراكب المدعوة باسم المواعين[1] والتي لشراعها المحبوك من الأسل شكل جناح عصفور النورس . وتتسع هذه المراكب لحمولة قليلة نسبياً، لكن بوسعها أن تجر في الدلتا. وهي تعبر الأقنية بشكل عام لنقل التمور ، والحبوب ، والدقيق ، والأثمار ، والجلود .

ومنذ فجر التاريخ أبحر السومريون في تشعبات الخليج العربي، وسط السبخات ، في مراكب خفيفة ذات حمولة ضئيلة . ولم يفت القبور أن تقدم لنا نماذج مصغرة لمراكب من الطين المشوي ، أو الحجارة الكريمة التي للأشخاص العظام ، وقد خصصت للميت أثناء حياته في العالم الآخر. وفي سنة ٦٨٩ ق.م. عندما شن سنحريب غزوته الانتقامية على بابل ، عقد العزم على الوصول إليها عن طريق النهر . فبنى له الفينيقيون جزءاً من الأسطول الحربي الأشوري في تل بورصيبا في أعالي الفرات ،

---

١ ـ مفردها ماعون وهو مركب للنقل او الملاحة على السواحل (المترجمان) .

وكان عليه أن يلتحم بأسطول نينوى . وقد وضع اسطول دجلة الصغير جزئياً على بكرات ، ولذلك كان ثمة حاجة لمراكب ذات حمولة محدودة . وبالنسبة لهذه الغزوة البحرية التقى الاسطولان على قناة أراهتو . وقد رأينا سابقاً الحالة المؤسفة التي تردت فيها بابل بعد نهب الاشوريين لها .

المساكن . — ان البيوت الأهلية ، والشوارع الصغيرة ، والأسواق ، هي على صورة الماضي ، وتتيح لنا أن نعثر في بعض النقاط على صورة للشرق القديم . فثمة نماذج في عالم الماضي بقيت على حالها ، لأنها تنتمي إلى عادات الجدود وتعود إلى المناخ . وتختلف عادات الشرق اختلافاً كبيراً عن عاداتنا نحن . فما نبحث عنه لبيوت سكننا من نور وهواء وإطلالة حلوة ، هو على العكس ، مستبعد في نظرهم ، والمنافذ التي تطل على الخارج هي ممنوعة ايضاً . وهناك عدة مبررات لذلك. فالشرقي حذر بادىء الأمر من كل نظرة قد يكون بوسعها أن تنفذ إلى بيته . أما تلك الشمس التي نبحث عنها نحن بشكل خاص ، فهي مما يسعى الشرقي إلى تجنبه . وتعرف بغداد في الصيف حرارة تبلغ ٥٠ درجة مئوية في الظل ، وقد شهدت بابل قديماً الحالة ذاتها . وفي ما تبقى كان سكان بلاد ما بين النهرين قد قدموا في معتقدهم الديني ، الإله القمر ، شفيع القوافل ، التي لم تكن تسير إلا في

الليل وخلال فصل الصيف بشكل خاص،وكانت الشمس المحرقة تعتبر كأنها المنصف العادل، وفي ما بقي ، كانت مراحل الشمس متميزة في العبادة التي كانوا يؤدّونها لها ؛ فلشمس الصباح الأولى التي تمحي ظلمات الليل الباردة ، كان يعزى سلطان الخصب ؛ وكانت شمس الظهيرة قاتلة ، وترتبط بألوهات الأوبئة والجحيم ، من مثل الإله نارغال .

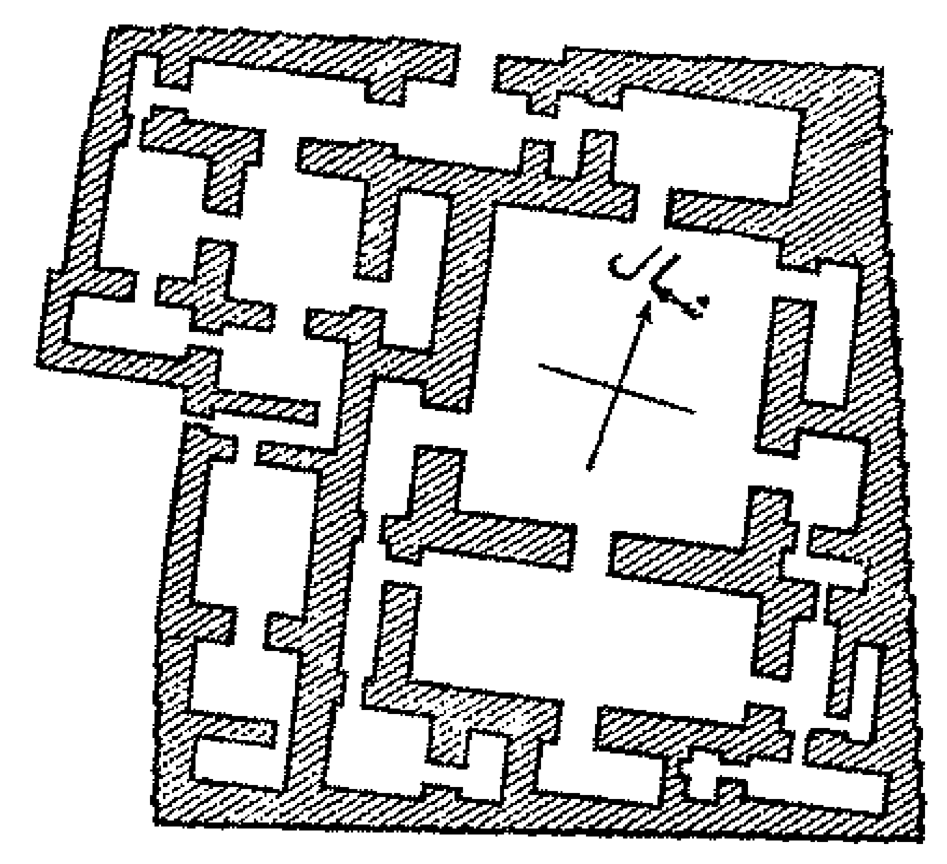
وفي أغلب الأحيان ، يمثل الباب في البيوت الشرقية ، المنفذ الوحيد، أما المواد المستخدمة في بنائه فهي من الآجر الحي الذي يتطلب سماكة كبيرة لكي يكون قاسياً ، وتناسب تلك السماكة بشكل رائع الحساية من الحرارة ، وهي تجبرنا أيضاً بألا ندع المنافذ تقضي على صلابة الحافة . وقد عثر في منطقة بابل على بيت قديم كانت جدرانه لا تزالّ على ما هي عليه؛وكان يدخل إحدى غرفه قليل من الهواء والنور بفضل منفذ صغير مفروز في حسافة الجدار ، ومسدود بقطعة من الطين المشوي مليئة بالثقوب هنـا وهناك. ومن البديهي أنه لم يقصد بذلك تجنب دخول الحيوانات إلى البيت فحسب ، بل استبعاد أية إمكانية للتطلع إلى الداخل كما هي الحال مع « المشربية » اليوم ، أو « نظرات الحسد » في إسبانيا ... أمـا واجهات البيوت التي تطل على الشارع ، أو البساتين على حد سواء ، فتكاد تكون مسدودة . فحول فناء في

الوسط نجد ، مثله في « صحن الدار » في إسبانيا ، كانت تطل الغرف مباشرة على نوع من الرواق الذي يحميه رف ، وعلى جهة من البيت ، كان يطل دهليز للخروج إلى الشارع . فإذا كان من حظ ساكن البيت أن يكون فوق طبقة من المياه ، فإنه كان يحفر بئراً في الفناء ، وإلا كانت تجمع مؤونة الماء في جرار تغمر إلى وسطها بالرمل . ولم يكن هناك في الغالب سوى موقد لطهي الطعام في الهواء الطلق ، لكنما كان يوضع أحياناً فرن في مطبخ . وكانت فتحات الأبواب مسدودة بدرفات من الخشب ، وكانت التربة في أغلب الأحيان من الطين المضروب ، وكانت مغطاة في ما بعد بالحصر ؛ وأندر من ذلك أن تعثر على تربة مغطاة بمربعات من الخزف . وفي أخبار هيرودوت ، يرد التأكيد القائل بأنه كان لبيوت بابل ثلاثة أو أربعة طوابق . ولم يعثر في التنقيبات إلا على بقايا الطابق الأول . ولم نتوصل إلى العثور على آثار الطوابق العليا . وعلى طول جدار البيت الداخلي، كان يستخدم الرف الذي يغطي رواق الطابق الأرضي كشرفة للطابق الأول ، ويصل غرف الطابق الأول بغرف الطابق الأسفل . وهناك سلم قاس جداً ، شبيه بتلك الأدراج التي لا تزال تستعمل حالياً في المغرب ، كان في بعض الأحيان من الآجر ، ولكنه كان في معظم الأحيان من الخشب ، وكان

السطح ، كما في أيامنا ، من جذوع النخيل التي تخيم سطح الغرفة من جدار إلى آخر ، وكان يوضع على تلك الجذوع في ما بعد ، أسرّة من القصب كان يكدس عليها الطين بواسطة اسطوانة . وغالباً ما كانت تترك الاسطوانة على السطح؛فحين تبرز الشقوق يجب وضع طين وتطيينها . وكانت الجدران الخارجية والداخلية مطلية بماء الكلس . ولم يكن في تلك المباني قبو ، بل كان هناك أحياناً ، غرفة كانت أرضها الدنيا تستخدم كبيت للمونة مثل «سرداب» البيوت في بغداد . وكان هناك في الغالب بستان إلى جانب البيت ، وهذا ما يفسر لنا اتساع موقع بابل .

« اسواق » بابل و « وسطها » . — ولنأخذ أيضاً كمثل احياء مدينة شرقية غاصة بالسكان ، لنعيد تكوين الأحياء التجارية في تلك العاصمة القديمة إلى جانب استعانتنا بمعطيات الألواح الحجرية .

فعلى بعد نصف ساعة بالسيارة تقريباً من مدينة كبرى ، تبدو البيوت والبساتين أول الأمر متباعدةعن بعضها البعض ثم تتقارب تدريجياً . وعند الاقتراب من المدينة تغص الطرقات بالمشاة الذين يتسارعون الخطى ، وبالعربات التي تجرها الثيران ، وبالحمير المحملة دون اكتراث على الاطلاق بتوازنها ، وبقوافل الجمال التي يقودها عادة حمار ، وبقطعان الأغنام أيضاً. فيتجه كل ذلك نحو المداخل



الشكل ٤ ـ بيت مركاس الكبير

في تشعب لا مفر منه . وعند الوصول إلى الأبواب يراوح كل الناس في أماكنهم ويتدافعون لأن في هذا المكان يدفع رسم الدخول ! وقد عثر في تدمر على تعرفة رسمية سجلت عليها الأسعار المخصصة للعبيد ، والأثمار المجففة ، والحبوب ، والقش ، والعطور ، والزيت ، والشحم ، والقديد ، والماشية ، والملح ! وبوجه عام تدل هذه التسمية دلالة واضحة على سجل الحركة التجارية التي كانت تقوم بها القوافل. وبعد الانتهاء من المعاملات

المطلوبة عند الدخول ، يتفرق الناس في المدينة ، في الساحات التي يجتمع فيها التجار في الهواء الطلق ، أو أنهم يتوجهون نحو « الأسواق » (كلمة « سوقو » كانت الاسم البابلي الذي يطلق على « الشارع ») . وهي شوارع صغيرة ضيقة يحتل التجار أماكنهم فيها في معزل عن تقلبات الجو والشمس ، وهي مغطاة بالخيم — كما نرى ذلك اليوم في شوارع اشبيلية ، مثــلاً . ومع اننا لم نعثر على « السوق الكبير » ، في بابل ، لأن الأمكنة التي كان يحتلها التجار فيه كانت بالطبع مؤقتة ، وذلك بناء للأسباب التي توجب ذلك في مدننا اليوم . وقد عثر على « مركز » تجاري شرقي القصر ، في مكان يدعى الـ « مركاس » — الذي يعتقد بأن ترجمته الصحيحة « العقدة » وكان فيه بناء هــام جداً ، لم يتضح لليوم الغرض الذي خصص له (الشكل ٤) . فقد كان فيه حي الأعمال الأقدم والأهم في بابل ، حيث عثر على بعض المدافن .

المدافن . — لقد اكتشفت بعض القبور في بابل في محــلة مركاس ، وقرب جدران القلعة .

وكانت هذه القبور محفورة في أبنية السكن المهجورة .

وفي مناطق أخرى، كانت توضع هذه القبور في أرض المنزل العائلي بالذات .

وبوسعنا أن نتتبع تطور أنواع المقابر منذ العهد البدائي.

ففي بادىء الأمر كان يوضع الميت المصحوب بأثاث الحداد الأولي على الأرض ، ويلف بحصيرة قش ويوضع في إطـــار مسور من الآجر ؛ ثم وضع الجثمان المشدود في عهد السلالة البابلية الأولى في اجاجين مزدوجة ومكشوفة .

وفي العهـــد البابلي الجديد والعهد البارتي ، كان الأموات يُدخلون في نواويس من الطين المشوي التي لها منفذ بيضاوي من الطرف الأعلى ، مغلق بواسطة غطاء كانوا يطينوه . وكان أثاث المقابر في المركاس وافراً ، ولكن هناك سلسلة من الذهب مغلقة بختم ذهبي مدموغ على شكل باب ملتصق بعدة أبراج ، عثر عليها في أحـــد قبور القلمة تبعث على التفكير بأن المقصود هو ان شخصية مهمة جداً دفنت هناك .

ويدل بقاء أثاث الحداد الطلسمي المخصص ليوفر للميت وسائل سحرية تجعله قادراً على القيامة من بـــين الأموات ، ان مفهوم الماوراء ، المشترك عند شعوب ما بين النهرين ، قد بقي هو نفسه عند الأشوريين والبابليين .

الماوراء . — كانت جهنم ، « الأرض الكبرى » ، أو «البلاد التي لا عودة منها » التي تؤدي إليها مياه النهر الجهنمي المميتة ، وراء مقلب مغيب الشمس والمنطقة الصحراوية ، خليقة بـــأن تتألف من سبع دوائر محفورة كل واحدة منها ببوابة كان يحرسها

أحد الحراس . وكان هذا الميدان هو الميدان الذي تسيطر عليه الآلهة أرش كيغال (أخت عشتار) والإله نرغال زوجها ؛ وكان مكاناً مظلماً مليئاً بالغبار الخانق ، كما كان الأموات بحاجة إلى الطعام والقرابين ؛ وكان بوسع الذين ماتوا الرجوع إلى الأرض كأرواح مدعية ومسيئة ، والويل لمن مات دون عقب .

تقاليد الحداد . — عندما يكون الموتى عاديين ، كانت تقام مأدبة تضم العائلة أمام الميت . وتقدم مأكولات مميزة لرفات الأجداد وللآلهة التي كان يعتقد بأنها تحضر وجبة الطعام . وتوضع مع الميت في قبره مواعين عديدة من قدور ومغارف وشوك تستكمل في غالب الأحيان ، بإطار من الحداد له علاقة بمراسيم القبر حيث كان على الابن البكر أن يؤمن القرابين الدينية .

اما عندما يكون الميت ملكاً ، فكانت تقام احتفالات أكثر أهمية ، لأن الملك كان على رأس ازدهار البلاد . وكان الحداد عليه شعبياً ؛ وكان يتفجع عليه الباكون والقوّالون الرسميون الرافلون بالثياب الحمراء ، وحاملو الأساور الذهبية التي لها لون ومعدن خاصّين ، لطرد الأبالسة . وكان يسجى جثمان الملك الراحل في ناووس مستطيل الشكل ، متسع الجدران ، موفر الأبعاد . وكان غطاؤه متصلاً بحلقات أو بألسنة لتسهيل تحريكه . وكان داخل الناووس وغطاؤه مختومين من كل جهة . وأثناء

تلاوة الصلوات كانت امرأة تدعى « الكلاتو » ، أي « خطيبة »
الميت ، وهي في الحقيقة تلك التي تقوم بالمراسم الأخيرة قبل
إغلاق القبر — وقد كانت هذه كنة الميت في منطقة اوما قبل
العهد السرغونيدي — هي التي تبقى لوحدها إلى جانب الجثمان .
وفي عهد مقابر اور الملكية (حوالي منتصف الألف الثالث
ق. م) ، كان يوضع بجانب الملك الراحل كل « افراد عائلته » ،
من نساء حرم ، وموسيقيين ، وخدم . ولم تكن هذه العادة
الرهيبة معروفة لدى الشعوب الأخرى؛ فكانت المجسمات الطينية
المشوية المنتشرة هنا وهناك هي التي تحل محل الضحايا البشرية .
وعديدات هن اللواتي كن يأخذن دور « الخطيبة » ، العذراء
الشابة ، « ذات الجنبين غير المشقوقتين ، فتظهر الواحدة منهن
عارية ، ومزينة بالحلي ، مسرحة تسريحة ليلة الزفاف الأولى .
وقد تطور هذا النموذج في العهود اللاحقة ، ولكنه بقي بشكل
ثابت نموذج المرأة — أو نموذج الأم حين تحمل طفلها — المرتبطة
بالمراسم العائدة لتأمين النسل . وفي العهد البابلي الجديد كان
الابن الأول المولد البكر يحمل إسم الجد (الذي يضاف إليه اسم
الأب) ، بينما يصبح اسم سلف معين اسم الأسرة .
والظاهرة القائلة بأنه لا يبدو أنه كان للبابليين فكرة الثواب
في العالم الآخر ، تدل على أنهم لم يهتموا إلا بتأمين استمراريتهم

بواسطة نسلهم . وقد تكون مراسم الحداد — عندمـا تكون مشهورة أكثر — على عـلاقة بتلك المراسم التي تسبق الولادة ، والتي تستحق دراسة معمقة . وقد يفسر ذلك ربما وجود العديد من قبابين الحائكين ، والابر ، وفي مرحلة سابقة ، تخصيص أمشاط للحلج وجدت في القبور مع المراكب ، والعديد من متاع « رحلة » الموت ، حين يتذكر المرء أن هناك أمشاطـاً ومغازل بـين الأغراض المهداة من قبل الزوجة الشابة لشيطانة تدعى لاماشتو تبدو بشكل واضح انها تلعب دور آلهة الموت .

وقد يخطر للمرء أن يشرح المشهد اللغز المرسوم على صفيحة من العهد البارتي أو الساساني ، عثر عليهـا في سوزة ، وكأنه تجسيد للطقوس الدينية التي تسبق الولادة : وتظهر فيهـا امرأة بشكل ضخم قد تكون الأم المتبدة ، وهي تمسك مغزالاً بيدها ؛ وأمامها سمكة هي ربما رمز للحبل ، بينما هناك مروحة يحركها أحد الأشخاص هي على وشك أن تنفخ نسمة الحيـاة في المولد الجديد . وقد دعي ذلك النقش « الحائكة » .

وغالباً ما نجد في تلك المقابر أسماكاً ومواد عديدة . وهي تظهر أيضاً مرتبطة بمياه الوعاء السحري « المحيية » . ويتدثر الساحر أيضاً بجلد سمكة (وهذا الساحر هو تلميذ مردوخ بن آيا) ، وهو يرئس الاحتفالات الدينية ، التي بقيت لغزاً حتى

هذا التاريخ ، في تلك الصفيحة التي يقال لها « جهنم » ، وثمة طلاسم مثل « اللامشتو » أو الاسطوانة الزرقاء ذات السجلات الخمس ، الموجودة في اللوفر ، والتي هي بالتأكيد على علاقة أيضاً براسم الحداد « والانبعاث » .

إلا أن هذا المجال هو دائمـــاً مجال افتراض ، لأن النصوص البابلية هي ، لسوء الحظ ، بعيدة عن أن تقدم لنا مصادر كتاب الأموات المصري .

٦ الابنية العامة

قصر الصيف . — ان القصور والهياكل هي الآثار التي أعطت لبابل طابعها المميز . ففي الجهة الشمالية من التل المدعو بابل ، خارج إطار المدينة يقع المكان الذي اختاره الملك ليشيد عليه قصر الاستجمام الذي هو على الأرجح قصر الصيف . وقد كان محمياً « بسور الشرق الكبير » الذي بناه نبوخذ نصر وجعله ممتداً حتى المكان الذي يتخذ فيه السور شكل زاوية ، وهو يتصل بالضواحي وقريب من الفرات . وقد أطلق الملك على قصره هذه العبارة « يعيش نبوخذ نصر ! وعمراً طويلاً لمن يعتني بالايساجيل ! » وقد حملت هذه التشكيلة من البنيان والعمارات المجتمعة حوله الإشارة التالية « قصر ملك بابل » .

ومن أعالي التلة التي ترتفع عليها بابل تشاهد وراء السور الشرقي قناة النيل ، وهي إحدى الأقنية الهـــامة التي بقيت من شبكة الأقنية التي أقامها البابليون ، ويمتد النظر من تلك التلة على الريف المجاور ، وهذا على الأرجح هو سبب اختيار موقعها . وقد اندثرت لسوء الحظ بقايا القصر إلى حد لم يتيسر لنـا معه إلا العثور على معالمها الدارسة .

متحف القصر . — وعلى كيلومترين من قصر الصيف ، نزولاً نحو الجنوب يصل المرء إلى تلة القصر ، وتتقدم باب عشتار بقايا أبنية على يسار طريق الاحتفالات ويمينها ، هي عبارة عن حصون قوية .

وقد عثر المنقبون داخل القلعة على أطلال بناء تزيد مساحته على مئة متر مربع لم يكن سوى « متحف » القصر . ففي هـذا المتحف كان ملك بابل يجمع الضرائب النادرة ، وخاصة تلك الغنائم المتأتية من الغزوات الحربية . ولم يبقَ لنا اليوم شيء من تلك الأغراض الثمينة ، لكن المنقبين تمكنوا من جمع بعض القطع النقدية ذات القيمة التاريخية ، وتشكل هذه القطع دليلاً على غزوات الملك المظفرة . وتعود تلك الآثار الدارسة إلى العصور الأخيرة من الألف الثالث ق.م ، كالنقوش التي تركها شولجي وهو أحد ملوك أسرة اور الثالثة . ولم يكن يفوت العدد كسر تماثيل

خصمه أثناء نهبه لمدينة معينة ، لأنه كان يرى في ذلك حرماناً لذلك الخصم من الفـــائدة التي كان بوسعه ان يغنمها من الصلاة المنقوشة على تمثاله الذي كان ينوب عنه بشكل دائم أمام الآلهة.
وكان يظهر في المتحف أيضاً تمثال باسم بوزور عشتار، وهو حاكم مدينة فارسية ، وقد اتخذت قطعتا هذا التمثال وجهتين مختلفتين عند اقتسام إنتـاج الحفريات : فقد نقل الجسم إلى اسطمبول والرأس إلى برلين . وبعد مدة من الزمن لاحظ علماء الآثار أن بوسعهم إعادة تركيب هذا التمثال، ثم ان هناك عدة قطع تؤكد ان ملك بابل لم يفته الأخذ بثأره عند احتلاله نينوى سنة ٦١٢ ق.م فتلك القطع وهي نقوش وآثار تعود إلى آخر ملوك أشور، بينها غنائم حرب إلى جانب آثار حثية .

ومع هذه القطع من الأسلاب وجدت ذكريات أكثر بعداً عنا تعود إلى خلفاء نبوخذ نصر ونابونيد ، وحتى إلى داريوس الاول (حوالي السنة ٥٢٠ ق. م) ، وهي تأتي إذن بعد سقوط العاصمة على يد الفرس. ويمكننا الاعتقاد بأن « أسد بابل » الذي عثر عليه في تلك المنطقة كان يشكل جزءاً من تلك المجموعة .
أما منشآت الحماية التي كانت تشمل التلة والمتحف فقد كانت تنتهي عند السور الداخلي المزدوج (ايمغور — بعل) بمساواة باب عشتار. وبعد أن يجتاز المرء الباب يجد من جهة معبد نين ــماه،

ومن جهة أخرى « القصر الملكي » وهو بناء يلاحظ المرء انه شيد أثناء حقبتين تاريخيتين .

قصر نبوخذ نصر الكبير . – يبدو أن هذا القصر قد شيد مكان مجرى الفرات القديم . وقد كان موضع رعاية خاصة من قبل الملك . أما من الغرب فقد كان يحف به نهر الفرات وتحصين ضخم . وكانت تحميه من الشمال أسوار المدينة ، ومن الشرق والجنوب سور قوي ، ويبدو أن الملك كان يخشى الغزوات من الشمال والشرق. فلصد الهجمات الآتية من الشمال قامت جملة من الأعمال الدفاعية كالقلعة ، والجدار الداخلي المزدوج ، بالإضافة إلى منفذ باب عشتار الوحيد . وقد ظهر الفرات من الغرب كسد طبيعي . لذلك كان يتعين على المرء الذي يود أن يصل إلى القصر من جهتي الشرق والجنوب أن يدخل إلى المدينة بالذات . فحي القصر يظهر إذن كنواة للمقاومة ، وكملجأ لصد العدوان أيضاً حين تسقط كل المواقع الأخرى، ولم يكن نموذج «القصر المحصن» هذا نموذجاً مستغرباً .

ويدخل قصر نبوخذ نصر ضمن مجموعة الأبنية الملكية التي جددتها الحفريات بدورها في اشور ، وفي المقاطعات الأخرى . وليست القصور في الحقيقة سوى مساكن بنيت وفقاً لتصاميم منزل عادي، ولكن، بأحجام تتناسب مع الغرض الذي انشئت

من أجله ، ففيها الفناء المركزي نفسه الذي ينطبق على المخطط العام والحجرات والغرف نفسها التي تتفاوت أهميتها مع تفاوت دورها وهي تطل على الفناء . أمـــا في ما يعود إلى المساكن البسيطة فإن الجدران ، التي كانت ضخمة في السابق كانت على ذلك الوجه بسبب حجم الأبنية ، وكانت المادة التي استخدمت في بنائها هي المـــادة نفسها ، أي الصلصال ، لذلك كانت تصل الأبنية بسهولة إلى تلك السماكات الهائلة . وتتعرض هذه الكتل الطينية للماء والشمس. ولمقاومة الماء والفيضان وجب أن تكون كل الأبنية القريبة من الأنهـــار مبنية على أرض صلبة من الطين المرصوص ، مدعمة في غالب الأحيان بواجهة من الحجـارة ، ومرتبطة بنظام متكامل لتصريف المياه والتخلص من ماء المطر والمياه المستعملة . وهكذا شيدت القصور والهياكل وكل الأبنية المهمة على سطح متين أفردت له الملوك في كتاباتها هذا الوصف : « صلب كالجبال » . وقد بني « القصر » شمالي موقع نبو بلاصر ، وقد سكنه ولده نبوخذ نصر في بداية حكمه ، ولكنه على أثر انتصاراته في مصر ، وعندما بدا له أن سلطته قد توطدت تماماً، اهتم بتجميل عاصمته وإعادة بناء قصر أبيه فأجرى عليه بعض التحسينات . وقد ترك لنـــا بعض النقوش التي تسجل تلك الأعمال :

« لقد نشرتُ لواء السلام بين شعوبي كلهـــا ، وكدّست في أهرائي كمية من الحبوب لا تحصى ، ثم أعدت عندئذ بناء القصر، داري الملكية ، « رابطة » الشعوب القوية، دار الفرح والسعادة حيث أودعت الجزية . وأرسيت أسسه على الأسس القديمـــة بواسطة القار والآجر حتى لامس العالم السفلي . واستقدمت شجر الأرز الضخم من لبنان ، تلك الغابة المظيمة ، لأدف به سطحه. وأحطت هذا القصر بجدار كبير... ومن هنا كنت أملي قراراتي الملكية وأوامري السلطانية » .

ويشير نبوخذ نصر في نقش آخـــر إلى أنه لم يظهر له شيء يفوق بابل ، ولذلك فقد اختار دار أبيه فشذ بعمله هـــذا عن إطار العادات الشرقية :

« في بابل ، مقر سلطاني المطلق... الذي بنـــاه نبوبلاصر بالآجر الحي ... والذي أغـــارت على أسسه فيضانات النهر . دككت جداره الخارجي المبني من الآجر الحي ، وعلى مستوى سطح الماء بالذات وطدت أسسه ... وجعلت درفات أبوابه من خشب الأرز المغلف بالبرونز ، وتجلت في هـــذه الدرف روائع الفن ، ثم ركزت عتبات أبوابه ومحاورها . وكدست فيه الفضة والذهب والأحجار الكريمة وكل ما كان له قيمة وجمـــال ، من الثروات والممتلكات الثمينة ... ولم ترتح نفسي في أن تكون

داري الملكية في غير هـذه المدينة ... فلم يكن في بابل موضع آخر جديد بأن تشاد عليه داري الملكية هذه » .

وفي الحقيقة لم يكن القصر القديم سوى مقر مؤقت . وفي ما تبع من نقش يذكر نبوخذ نصر كيف بنى السطح من القرميد الحي قرب ايمفور – بعل ونيميتي – بعل ليقيم فيه بعدئذٍ مقراً جديراً به يضمه إلى مقر أبيه :

« استعملت في سطحه جذوع الأرز الضخمة ، سليلة الجبال الشاهقة ، وجذوع الصنوبر والسرو . وجعلت مصارع أبوابه من خشب الابنوس ، والأرز ، والسرو ، والشمشاد ، والعـاج المغطى بالفضة والذهب ، ووضعت في أبوابه عتبات ومحاور من البرونز ، وجعلت في أعلاها افريزاً من اللازورد ... وأحطت القصر بسور كبير » .

تساعدنا هذه الأوصاف في العثور على هـذه الأبنية وشرح معالمهـا . فقد أقيم قصر نبوخذ نصر على سطح بشكل شبه منحرف ، وزينت جدرانه الخارجية ببساطة بأطر على شكل نتوءات وتجويفـات ، مكملة بذلك الزينة التقليدية التي هي من أصل سومري ، وهي زينة تتأثر فقط بتموجات الظل والضوء . وعندما يدخل المرء إلى وسط القصر يطل على إحدى الساحات التي تؤدي إلى « صالة العرش » وهي بعرض خمسين متراً وارتفاع

خمسة عشر . وتجاه الباب الوسطي (في ذلك الوقت ثلاث كوى) كانت توجد مشكاة يُقدر أن عرش الملك كان قد نصب فيها . ونادراً ما كان يتخذ الملوك الشرقيون تدابير تجعلهم مرئيين عن بعد ، إلا أن أبواب المدينة كانت في العادة أماكن نزاع . ويبدو ان بابل اتبعت تقليداً آخر . فقد أضفى الظل النصفي ذلك الشعور بالعظمة والسحر المطلوبين لعرض الملوك والآلهة عن طريق الكوى الكبيرة المغطاة ، أو ربما عن طريق المنافذ الصغيرة

الزخرفة . — لم تصلنا آثار الزينة في قصر نبوخذ نصر إلا على شكل اشتات مبعثرة . وقد استعملت بابل من الآجر المزخرف أكثر من باقي المناطق الأخرى ، وشكلت النماذج المزخرفة الكبيرة ، والأطر التي في أرضيتها المسطحة أو البارزة ، زينة من الحيوانات الرمزية ، كنقوش باب عشتار أو تلك الرسوم التي تكاد تتخذ شكلاً هندسياً .

وعلى جوانب « صالة العرش » ، وعلى واجهة المدخل المؤدي إلى الساحة الكبيرة كانت ثمة زينة من الآجر المزخرف بنوعيه : الأزرق والأصفر ، تمثل « رسماً خدّاعاً » لأعمدة موشاة بتيجان لولبية تعلوها أغصان من النخيل يرى البعض ، بغير حق ، أنها تقارب من تاج ساخر غالباً ما يُشاهد بين منطقتي كردوك

وقبرص . ويرى المرء من الأعلى افريزا من أغصان النخيل المزدوجة ، أي تلك التي بعضها منتصب وبعضها مقلوب ، كان يكمل الزينة . ويبدو ان النماذج المزخرفة التي في بابل هي أقرب إلى الزخرف الديني . ويذكرنا العمود نفسه الذي يعلوه تاج لولبي ، والذي وصفناه على أنه نموذج مزخرف « كالشجرة المقدسة » التي هي رمز الخصب أكثر مما تذكرنا زينة هندسية بسيطة تمت إقامتها لتكون بهجة للنظر . كذلك لا يغيب عن بال الفنان ، عندما يرسم زينته ، أن الهدف المطلوب منه هو حماية البناء بصور تبعدالأذى . ولا يفوت الزخارف الهندسية نفسها قانون الرمزية هذا ، فهي تحتوي بشكل مختصر تماماً على موضوع كامل كان من الجائز أحياناً الخوض فيه .

ولقد تحدث ديودور أثناء وصفه لبابل عن « لوحات الصيد » التي كانت تزين جدران القصر ، والتي لم يصلنا منهـا شيء لسوء الحظ . غير أنه يمكننا تذكر مشاهد الصيد الخلابة تلك عن طريق العودة إلى آثار النقش البارز التي وصلتنا من حفريات نينوى التي أتتنا ببعض الروائع التي تتجلى فيها بساطة الفن مثل اللبوءة المكلومة .

الجنائن المعلقة . — عندما يذكر التاريخ القديم « عجائب الدنيـا السبع » فإنه بعد أن يعدد أهرام مصر ، وقبر الملك

موزول ، ومعبد ديانا في أفاز ، وهيكل زوس الأولمبي في ميدياس ، وتمثال رودوس ، ومنارة الاسكندرية ، يأتي على ذكر « الجنائن المعلقة في بابل » كعجيبة سابعة .

فهذه المكانة الفريدة التي كانت لبابل أثارت اهتمام الرحالة القدماء بشكل خاص مثل : « ديودور ، وسترابون ، وكنت - كيرس الذين أكدوا على أهمية هذا القسم من القصر .

فكما يقول ديودور : لقد كانت « الجنينة المعلقة » في القلعة ، وهي عمل رائع لا يعود إلى سميراميس بل إلى ملك أتى قبلها ، وقد بناها بناء لرغبة إحدى خليلاته . ويحكى أن هذه المرأة الفارسية الأصل كانت تتلهف لرؤية مروج الجبال في بلادها ، وقد ألزمت الملك بأن يذكرها بواسطة نباتات اصطناعية ببلاد فارس موطنها الأصلي . فقد كان في كل جهة من هذه الحديقة المربعة الشكل أربعة أدراج ، كان يصعد إليها بدرجات على سطوح موضوعة بعضها على البعض الآخر بشكل يظهر فيه المجموع بهيئة مدرجات . وكانت تلك السقوف أو السطوح التي يصعد عليها مستندة إلى أعمدة ترتفع تدريجياً بين مسافة وأخرى كانت تحمل جذور النباتات . وكان العمود الأكثر ارتفاعاً ، وهو بعلو خمسين ذراعاً ، يحمل أعلى الحديقة ، وكان على مستوى واحد مع درابزين السور . وكانت هذه الأرض الاصطناعية حافلة بكل

أصناف الأشجار التي تسحر النظر بشكلها وجمالها . وكانت تلك الأعمدة التي ترتفع تدريجياً تتيح بفضل الانفراجات التي بينهـــا دخول النور، وتشكل مدخلاً للمساكن الملكية العديدة والمختلفة الزينة . وكان أحد هذه الأعمدة مجوفاً من أعلاه حتى القاعدة . كانت فيه آلات تعمل عن طريق ضغط الماء فترفع كمية من مياه النهر دون أن يكون بوسع أحد أن يرى أي شيء من الخـــارج . وعلى هـــذا النحو كانت تلك الحديقة التي بنيت ، كما ذكرنا ، في وقت لاحق .

ويقول سترابون إن السور هو في عداد عجائب العالم السبع ، إلى جانب الجنينة المعلقة . وهو ذات شكل مربع يتكون كل ضلع فيه من أربعة أدراج . ويتألف السور من عدة سطوح مقببة ترتفع بعضها فوق البعض الآخر مستندة الى دعائم ضخمة على شكل مكعبات . ونصل إلى الطابق الأعلى عن طريق درجات تمتد على أدراج حلزونية كانت ترفع بواسطتها مياه الفرات إلى الحديقة .

وأخيراً، وبعد تعداد رونق بابل وبهائها يتابع كنت ـ كيرس كلامه على هذا النحو :

«إن الجنائن المعلقة هي في أعلى القلعة ،وهي عجيبة أسطورية في نظر الإغريق ، كما أنها على مستوى واحد مع أعلى الجدران ،

وهي مزدانة بالعديد من الأشجار الباسقة والظليلة . ويحمل كل هذا الثقل دعائم ترتكز على الصخر ، وعلى هذه الدعائم سطح مرصوف بحجارة مربعة تتمكن من تلقي طبقة سميكة جذوعها ثماني أذرع وارتفاعها خمسون قدماً وهي تنتج ثماراً أكثر مما لو كانت تعيش في أرضها الطبيعية... ويخيل إلينا أننا نرى عن بعد غابات على رؤوس جبالهم . ويقـــال أن ملكاً من سوريا ، كان يحكم بابل، قام بهذا العمل الرائع ليرضي امرأته التي كانت تعجب كثيراً بالغابات والأماكن البرية » .

لقد ذكرنا هذه الأوصاف لنشير بها إلى ما تطابق منها ومـا تباين ، فالآراء تختلف حول التنظيم الداخلي لأرض هذه الجنائن، ولكنها تتفق على القول بأن في أعلى البناء المقبي جنينة مغروسة بالأشجار . ويضيف ديودور وكنت — كيرس بأنها كانت تقع في القلعة ، وهذا ما يحدد المكان بنـــاءاً على نتائج الأبحاث . ومن ناحية أخرى نلاحظ أيضاً أن الأعمـــال لم تنط بسميراميس كما أنيطت بابل، وإنما بملك سوري أتى قبلها ، وإن اسم الملكة التي من أجلها بنيت هذه الحدائق بحسب اوزيب ، كما يذكرنا ذلك باروز ، هي أميتيس حفيدة استياج ، وابنة سياكسار، وخطيبة نبوخذ نصر أثناء حكم نبو بلاصر . وقد أقام نبوخذ نصر تلك الجنائن المعلقة ليرضي زوجته الميدية عندمــا أصبح ملكاً ،

وكانت فراديس الفرس معروفة في القديم ، وكان من الطبيعي ان يتأثر بهـــا البابليون عند بناء جنائنهم المشهورة . ولم يتوصل المؤرخون بعد إلى إزالة الالتباس الذي ورد لدى الكتّاب الإغريق. فورود اسم ملك سوري في كتابات هيرودوت هل يمكن تفسيره في الواقع بأن الملك نابونيد ، الذي كانت أمه كاهنة الإله سن في حرّان ، قد أقام ثماني سنوات في تايما ؟ ثم اننا نتساءل ، ألم يمزج اسم نيتوكريس عند هيرودوت باسم « سيدة القصر » الاسطوري في بلاد أشور ؟ ثم ان اوزيب وستازياس كانا ، بلا شك ، أفضل المخبرين عندما ذكروا اسم اميتيس كملهمة لبنـــاء بابل . ولنبحث الآن في نتائج الحفريات .

لقد وجدت البعثة الالمانية بالفعل في الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة ، التي تجاور باب عشتار ، بقايا بناء يتطابق تماماً مع وصف الجنائن المعلقة .

فعبر ممشى ينطلق من الساحة المجاورة لساحة « صالة العرش » يصل المرء إلى بناء يقع في الزاوية الشمالية الشرقية من القلعة على طول طريق الاحتفالات التي تلي باب عشتار داخـــل المدينة . ويتألف هذا البناء من أربع عشرة غرفة صغيرة مقبية بأقواس تنطلق سبعة سبعة من جهتي ممشى الوسط . وهناك ممشى آخر يشكل قسم منه سور القصر الذي يحيط به .

وقد بنيت الغرف الصغيرة على مستوى دون مستوى القصر، ونجد أيضاً من كل الجهات كمية كبيرة من بقايا حجارة استخدمت في البنـــاء . وقد حفرت في ذلك المبنى مجموعة مؤلفة من ثلاث آبار : بئر في الوسط وهي مربعة الشكل ، وبئرين جانبيتين بيضاويتي الشكل . ولعل هـذا المثلث من الآبار قد انتفع منه باستخدام سلسلة حديدية طويلة كانت الأوعية المعلقة بهـا ترفع الماء من جوف الأرض إلى السطح بشكل دائم . ولقد رأينا أن تحديد كتّـاب الإغريق للمكان يتيح لنا دمج هذه المجموعة كلها « بالجنائن المعلقة » . وتشير الكتابات المسمارية من جهة أخرى إلى أن الحجر لم يستخدم في بابل إلا في بناء جدار القلعة ، وفي « الجنائن » (باستثناء سطح الجسر) ؛ وتظهر في المكان الذي أجري فيه التنقيب بشكل واضح كمية محدودة من بقايا الحجارة.

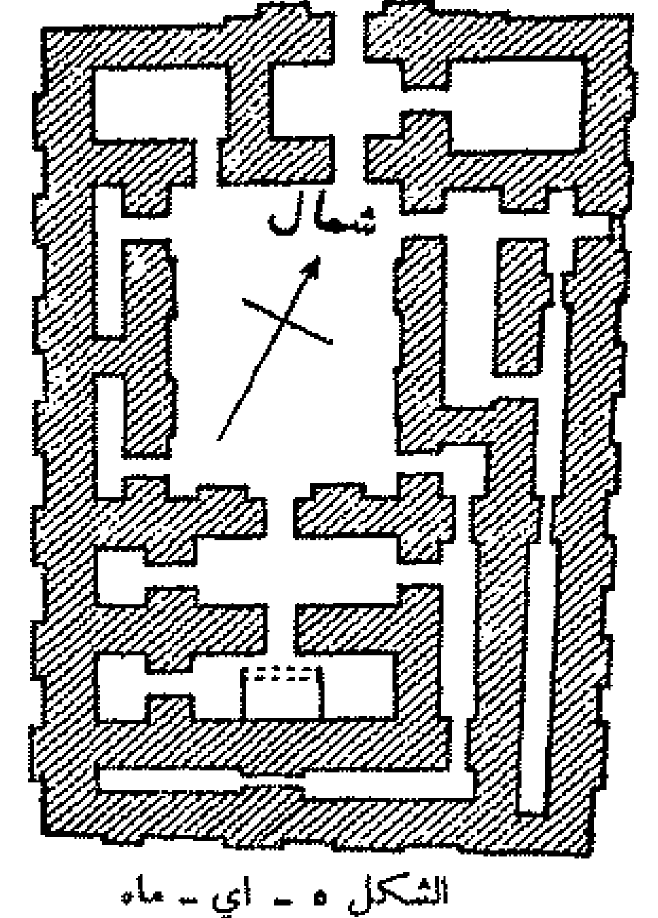
ولوقوعها في أعلى مكان من المدينة كانت هذه « الجنائن » ، التي تخطت رؤوس أشجارها جدران القلعة ، مؤلفة من سطوح مدعمة ، ومن أبنية مقببة . وكانت تتراءى من البعيد البعيد ، وهذا ما لفت إليها نظر الزائرين الذين أشادوا بهـذه « المعجزة » حيثما حلّوا .

٧ الأبنية الدينية

الهياكل . — لقد استأثرت هياكل بابل ، بين كل الروائع قاطبة ، بإعجاب العالم ، وأتاحت لنا اللوحة التي تختصر آثارها، الاطلاع على أهمية تلك الآثار ومعرفة عددها. وكشفت الحفريات عن بعضها ، كال « أي — ماه » الذي شيد على اسم الآلهة « نين — ماه» ، وهيكل الجبروت المشاد على اسم « السيدة الجبارة ». وقد أقيم مذبح صغير من الآجر الحي أمام باب الهيكل ، ولم يكن هناك إلا مدخل واحد يتصل بالغرفة التي يقيم فيها الحجاب. ويدخل المرء بعد ذلك إلى فناء كبير فيه بئر فيصل من هناك إلى مدخل يسبق « غرفة العبادة » التي تتصدرها صورة الألوهة . وكانت المداخل العديدة إلى الساحة تتيح الولوج إلى غرف عديدة

مخصصة للكهان ولأثاث العبادة ، وكذلك إلى معبر يحمي مسجد الإله والكنز . ويعتقد أن الخروج كان يتم عن طريق يؤدي إلى السطح (الشكل ٥) .

وعلى مسافة من ذلك ، أقيم إلى الجنوب هيكل نذر للآلهة عشتار ، التي تدعى « عشتار اكاد » (اغـاده) ، وهو منظم بشكل يشبه تنظيم هيكل نين - ماه ، ولكنه مزود ببابين للـدخول ، يؤديان إلى الساحة الكبرى .



الشكل ٥ - اي - ماه

وعلى مسافة من ذلك ، إلى الجنوب ، آثار هيكل نين - اورتا ، وفي الموقع نفسه أخلي هيكل الآلهة غولا أي « الكبيرة » من الركام ، وقد كانت غولا في تلك الفترة آلهة للطب .

ومن بين كل الهياكل كان هيكل بعـل - مردوخ ، (باليس) هو الذي أذهل القدماء الذين زاروا تلك المدينة .

وفي تل عمران جنوبي القصر ، يرتفع هيكل بابل الكبير « الايساجيل » الذي يعني اسمه « هيكل الذروة السامية » أو الهيكل ذو السطح المرتفع» مع زاقورته (البرج ذو الطوابق) ، وهو برج بابل الشهير الذي يدعى « ايتامانكي » أي « هيكل أساس السماوات والأرض » ، فذلك هو أهم أبنية العاصمة ، وهناك كانت تجري الاحتفالات الدينية .

هيكل مردوخ . – تاريخه – يغطي هيكل مردوخ وتوابعه مساحة ٥٥٠ م٢ على ٤٥٠ متراً ، بينما لا يتجاوز أكبر طول في الهياكل الأخرى الخمسين متراً. ويبلغ طول محراب مردوخ ١٥٠ متراً . ويشير ذلك إلى ما كان لهذا الإله من مكانة عظيمة في بابل. فكان الايساجيل والايتامانكي يحتلان إذن قلب المدينة. فمن الجنوب ، كان الهيكل يحاذي الفرات ومن الشرق كان يشرف على طريق الاحتفالات ، ووراء ذلك يوجد المركاس ، ويشير هذا الموقع في وسط المدينة إشارة واضحة إلى أن بابل كانت قبل كل شيء حاضرة دينية .

ولم يقم المنقبون إلا بحفريات جزئية في الايساجيل ، وحاله في ذلك حال العديد من الأمكنة. فقد كان مطموراً بكتلة كبيرة من الخرائب يزيد علوها على ٢١ متراً ، وتقدر كتلة التراب التي توجب على المنقبين نقلها لبلوغ الأقسام التي قُدّر لهم رفع الأنقاض

عنها بـ ٣٠٠٠٠٠ م٣ ، وبالرغم من مختلف النظريات التي طرحت حول موقع الهيكل الحقيقي ، فنحن على يقين بأن هـذا الهيكل هو الايساجيل ، استناداً إلى النقوش المسمارية التي وجدت في ذلك المكان . وقد أثبت ذلك ما وجد تحت البلاط الذي فرشه نبوخذ نصر من آجر قديم العهـد يعود إلى آثار سابقة من أيام اشور بانيبال واسرحدون. فنحن نجهل تاريخ أول بناء للهيكل، ولكننـا متأكدون على الأقل بأنه بني في زمن السلالة البابلية الأولى التي أسسها سوموابوم، الذي شيد سور بابل المعروف اليوم بـ«السور الكبير»، وهو الذي اختار بابل كعاصمة. وشيدخلفه ، سومولايل عرشاً لمردوخ مرصعاً بالذهب والفضة ، وأقام تماثيل للآلهات زربانيت وعشتار ونانا ، في السنتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من حكمه . ولم ترد أية إشارة إلى الايساجيل قبل السنة العاشرة لحكم زابوم ، خليفة سومولايل ، وقد بدا ذلك أمراً مستغرباً . ولسوء الحظ ، فإن النقوش الملكية تشير أحياناً إلى بناء وكأنه قد شيد على يد ملك لم يقم في الحقيقة إلا بترميمه ، أو توسيعه ولا يشير إلى ذلك دائماً على الوجه المطلوب.

وكان يلحق بالهيكل أذى بالغ إثر كل نكبة كانت تتعرض لها بابل . وفي كل مرة كان يجدد فيها الخراب لم يكن يفت الملوك ان يتحدثوا عن أعمالهم . ولقد رأينا كيف أن آجوم ـ كاكريمة ،

الملك القاري من أبناء السلالة البابلية الثالثة هب لنجدة مردوخ وزربانيت اللذين خطف الحثيون تماثيلهما فأعادوها إلى بابل وقد ارتأوا وضع التماثيل بادىء الأمر في معبد وراء هيكل شمش . ثم يحدثنا بعدئذ عن الأعمال الكثيرة التي قام بها . فقد استدعى العاملين بالمعادن والصاغة والنجارين ، وقدم لمردوخ وزوجته زربانيت ثياباً فاخـــرة تزن ٤ تالانات ، وكان التالان الواحد يساوي ٣٠ كلغ ، ودثرها بنسيج من الذهب الخالص ، ويعدد في مـــا بعد الحجارة الكريمة والرخام الذي قدمه لتزيين المحراب وثياب الآلهة والإله . وكان التاج الموضوع على رأس مردوخ من الذهب ومن اللازورد ، وبالنسبة لأعلى الضفيرة فهو يفصّل أيضاً كل الحجارة الكريمة التي تجمّلها؛ وكانت الدروع والتيجان مزينة بقدر كاف من الوقار . ويشير الملك بعد ذلك إلى الأعـــمال التي سبقت إدخــــال الآلهة إلى محاربها . وكانت الأبواب مصنوعة من خشب الأرز وملبسة بالبرونز ، والأقفال مشغولة بشكل دقيق ، وكان هناك صور للتنين ولعدو الأسماك ، ولـكلب مفترس وللرجل السمكة . ويتوالى التعداد بذكر القرابين العظيمة القيمة التي كان يقدمها الملك للإله . ويذكر أخيراً أنه هو الذي بنى معبد مردوخ ، وهو الذي جدد بناء الايساجيل . وتشير الوثيقة فوق هذا كله إلى الهبات التي قدمها للعمال الذين أسهموا في أعمال

البناء ، وإلى الذين أعتقهم من كل « القيود » ... وقد أعيدت كتابة هذا النقش المهم في القرن السابع ق.م لصالح مكتبة أشور بانيبال الشهيرة .

وفي حين أننا نتلقى مزاعم القدماء بعين ناقدة ، ولمعرفتنا بالمبالغة الشرقية ، قد يخطر لنا أن نقلل من وجود تلك المواد الثمينة . إلا انه وإن لم تظهر الحفريات في بابل الروائع المصورة التي تحدثنا عنها ، فذلك لأن بابل قد نهبت منذ قرون بعيدة ، على عكس ما جرى في أور في بلاد ما بين النهرين الواطئة . فقد اكتشفت مدافن ملكية كان الذهب موجوداً فيها بكثرة. وهذا ما يحملنا على أن نحمل على محمل الجد ما تقوله النصوص المسمارية. يقول نبوخذ نصر :

« لقد رصعتُ بالذهب الخالص أثاث العبادة في هيكل ايساجيل ، وزينت مركب مردوخ بالحجارة الكريمة والصياغة، وقد كانت كالنجوم في السماء . ولقد هداني قلبي لبناء الهيكل فوضعت تصميمه في مخيلتي ...» .

ويقول نبوخذ نصر أيضاً :

« أما بالنسبة لمركب موزيكوا الخاص بالايساجيل ، وهو وسيلة نقل لمردوخ ، فقد جهزته بصور وحوش لها رأس ثعابين ، وزينته بجواهر تلمع كالنجوم، وعلى أمواج الفرات المقدس جعلت رونقه يتلألأ ... » .

ولم يكن تصميم الهيكل البابلي الكبير يختلف عن التصميم العادي . فقد كان يتألف من ساحة واسعة كان مدخلها من جهة الشرق . وإلى الغرب ، تجاه المدخل كان ثمة المحراب المدعو اكور. ويؤكد هيرودوت بأن الذهب كان قد استخدم فيه بكثرة.

ويقول : بأن فيه تمثال كبير لزوس (الإله اليوناني الذي يشبه مردوخ) إلى جانب العرش والرواق وطاولة القرابين التي كانت أمامه ، وكانت كلها من ذهب وتزن ٨٠٠ تالون ذهب .

ونقل إلينا نبوخذ نصر أيضاً إحدى فترات بناء الهيكل الحرجة ، وهي فترة إقامة المسطح الذي يقع عليه ، فحول بناء الـ أي — ماه يقول :

« أنا نبوخذ نصر ، ملك بابل ، وابن نبو بلاصر ، ملك بابل ... أعدت بناء الـ أي — ماه ، هيكل نين — ماه في وسط بابل ، من أجل نين — ماه العظيمة والجبارة في بابل . وأقمت حول هذا الهيكل مسطحاً عظيماً من القار والآجر وملأت ما في داخله بالتراب المقدس » .

وتدل هذه النبذة على الاحتياطات المديدة التي اتخذت لوضع البناء حسب الشروط المطلوبة . ومن ناحية أخرى كانت هذه السدود ضرورية لمنع تسرب المياه وحق الفيضانات . وقد أقيم الايساجيل أيضاً على قاعدة من الآجر .

وبفضل النصوص المسمارية التي تتحدث عن مراسم « بناء » الهيكل ، يمكننا أن نتعرف على خفايا الاهتمامات لبناء هيكل مردوخ . فكان البابليون يهبون لكل شيء قيمة دينية لا تظهر دلالتها دائماً لأعين الأنجاس . لقد حررت تلك المراسم للتقيد بالقواعد المقدسة ولتجنب الأخطاء التي يمكن أن تؤدي إلى نتائج خطيرة جداً . ويجب أن تتجنب الإساءات إلى المراسيم الدينية لكي لا يؤدي ذلك إلى اضطرابات في انتظام الكون . فلتشييد بناء ديني علينا ان نتأكد من أننا على اتفاق مع قوانين الانسجام الكوني ، ومع قوانين التنظيم الديني . ولقد تمكنا من الملاحظة بأن العلاقات بين مختلف أقسام الدورة الكونية كانت مبنية وفق تصميم « رياضي » . ولقد استخدمت التنظيمات النيّرة للاعداد ، وأقيم منها نظام بكل معنى الكلمة يمكننا تسميته « نظرية العدد المقدس » .

الأعداد المقدسة. ـــ نلاحظ في الأنظمة العددية التي اخترعها البابليون القدماء (والسومريون من قبلهم) أنه إلى جانب الطريقة البسيطة في العد التي تؤدي إلى النظام العشري الذي استخدمه الشعب ، كان ثمة طريقة حسابية معقدة أدخلت النظام الستيني . وقد كان لهذين النظامين معاً وجود قبل ذلك العصر بمدة بعيدة . وعلى العكس ، فقد كان للنظام المبسط الفضل الكبير في تقديم أعداد كاملة للكسور ، ويتيح استخدام معادلات

بشكل مختصر كثيراً في حسابات علم الفلك لأن الوحدة كما أشرنا سابقاً كانت متغيرة بتغير الموضع الذي تشغله فكانت تمثل ١،٦٠ أو مربع العدد ستين لنصل من كل ذلك إلى عدد كامل هو ٣٦٠٠ (أو ٣٦٠) كان يحصل عليه خاصة بفضل علامة تدعى « شار » تمثل المجموع . وكانت تمثل هذه العلامة بدائرة مكسورة وقد اتخذت شكل معين أفقي . وتمثل هذه العلامة العدد الأكبر الذي يحتويها جميعاً وهو : « الكون » . ويؤلف العددان ١٠ و ٦٠ اذن أجزاء هذا العدد ، وقد قسمت الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، والدورة السنوية إلى ثلاث مئة وستين يوماً ، واثني عشر شهراً يتألف كل منها ثلاثين يوماً ؛ ويتألف اليوم أخيراً من ١٢ ساعة مزدوجة . وقد اتخذت الدائرة كرمز للدلالة على الوقت والمدة. ونستدل من هذه الأدوات الحسابية أن البابليين كانوا يأخذون بناصية الرياضيات والحسابات الفلكية. وقد بلغت شهرتهم مدى بعيداً ، حتى أن القدماء أتوا للدراسة في مدارس الكلدانيين .

ولم يتناول أولئك الوجهة العملية وحدها ، بل عمد التقويم الديني إلى تنظيم « علم لرموز الأعداد » . وأصبحت الأعداد بالنسبة لهم وسيلة للتعبير وأغدق على الآلهة عدد كان مميزاً لهم ويتناسب مع تنظيمهم في الدائرة الكونية التي يهيمنون عليها والتي إليها ينتسبون. فلقد ابتدع البابليون فكرة «العدد المقدس» !

ولم يكن نظامهم المعقد والمحكم سهلا ، لا سيا أنهم اهتموا بنقل قواعده عن طريق آخر غير طريق التلقين ، فقد كان ثمة تحريم بنشر أصوله على من هم « غير عالمين بالأسرار » . وكان الكهنة مكلفين بحفظ المراسم الدينية؛ فهم الذين أنيط بهم نقل « التراث المقدس » الذي يجب الا يكشف عنه لباقي الناس .

اللوحة المدعوة « من الايساجيل » . — لقد عثر العلماء على لوحة تدعى « من الايساجيل » وهي لوحة منسوخة عن النص الأصلي الموجود في بورصيبا ، وكانت تشير إلى مقاييس ساحة الايساجيل الكبيرة وساحات بالي وزبابا ، وتدل على الأبواب الست : البـاب السامي ، باب المشرق ، الباب الأثري ، باب لاماسو الكبير ، باب الفيض وباب العجائب ، ولم يدخل في ذلك الباب المقدس أو باب « الخلاص » . وتفتح هذه الأبواب على الساحات أثناء طقوس « ايكور » (معبد الإله مردوخ) وعلى جنبات « الابشوكيناكي » أو معبد الأقدار .

وقد أعيدت ترجمة هذه اللوحة عدة مرات بسبب الصعوبات التي تتمثل فيها ، فقد كان في ذلك مسألة « مقدسة » لها عدة مقولات تؤدي إلى حل واحد يتأتى من عمليات حسابية مختلفة . وقد ذكرت صفتها المحكمة على اللوحة نفسها . فهي تدور قبل المراجعة النهائية لقياساتها على توصية حررت بهذه العبارات :

فليعرضها العالم بالأسرار! على العالم بالأسرار! وعلى المتجس الا يراها!

ويبلغ طول الساحة الكبرى حسب لوحة الايساجيل ١٠١،٧٤٥ م تقريباً بعرض ٨٠،١٩ م تقريباً، وأبعاد ساحة بالي وزبابا هي: ٩٤،٠٥ متراً بعرض ٤٠،٠٩٥ م تقريباً.

وقد قدمت لنا أيضاً قياسات قاعدة الايتامانسكي، وهو برج الطوابق، بشكل مسألة حسابية. ويدور الحل الأول حول عدد الأذرع وهو يذكر أن الطول كان يساوي ثلاث أضعاف العدد ستين وهكذا القول عن العرض. وكان المجموع إذاً ١٨٠ ذراعاً (٩٠ م تقريباً، وهذه الاذرع العادية تشكل تقريباً ٠،٥٠ م). وقد أعيد ذكر الحساب بعدئذ بشكل آخر: الطول ١٠ غار والعرض ١٠ غار أي ١٢٠ ذراعاً بطول ٠،٧٥ م الذراع الواحد، أو الذراع الكبير (١٢٠ × ٠،٧٥ م = ٩٠ م) فقد استندت هذه القياسات اذاً على العددين: ستين وعشرة.

وتظهر لنا هذه اللوحة، وكذلك مراسم العبادة، بالنسبة لبناء الهيكل، طرائق لا يرتقي إليها الشك في ما يتعلق ببناء الهيكل. ولم تفت هذه القواعد أي بناء، وقد قدم لنا الملك سرجون في خرصباد الإشارة التالية: «لقد جعلت طول السور ١٦٢٨٣ ذراعاً كبيراً وهذا العدد هو قيمة اسمي العددية».

لذا وجب أن يكون بناء سرجون منسجماً مع اسمه . ولكننا لسوء الحظ، نجهل كل شيء عن التعريفات التي استخدمت لتقدير اسم هذا الملك .

« بلاط » الاله. — لقد تناهى إلينا بأن الآلهة كانت تُعامل كأناس لهم سلطان اكثر اتساعاً ، ولا حدود له أحياناً . وكان للإله ، الشبيه بالحاكم ، في مسكنه الأرضي الحاجات نفسها التي للكائن الإنساني ، وكان يشتمل بلاطه أو دارته بالإضافة إلى أعضاء أسرته ، على خدام الآلهة من: خبازين وعجانين ، وطهاة ، وحراس ، وحجاب ، وموسيقيين حتى كلابه المباركة أيضاً التي وصلتنا اسماؤها .

وعن العديد من المعابد القائمة في الايساجيل ، لم تأتِ الحفريات الناقصة بمعلومات معينة . ونحن إذ نعرفها ، فمن خلال النصوص فقط .

ويبقى علينا أن نصف الأثر الذي تجاوزت شهرته آلاف السنين وهو : برج الطوابق في الايساجيل ، أي الايتامانكي .

برج بابل . — لقد جاء في سفر التكوين (الفصل ١١ ، الإصحاح من ١ — ٩) أن بناء برج بابل يعزى إلى سلالة نوح . فقد كان يدور في خلد بنائيه أن يوصلوه إلى السماء ، ولكن الإله السرمدي فرّق الألسن ليمنعهم من تحقيق أمنيتهم وشتتهم

بعدئذ في مغارب الأرض ومشارقها .

وقد بحث جميع المسافرين عن برج بابل وغالباً ما خلطوه ، كما أشرنا إليه في حينه ، بأنقاض برج الطوابق في بير — نمرود ، بورصيبا القديمة ، الذي كان قد أقيم للإله نابو ، ابن الإله مردوخ . وقد حصل هذا الاختلاط منذ أيام هيرودوت ، فقد لا تكون بعض أوصاف الكتّاب القدماء أوصافاً يركن إليهـا إلا بالنسبة لهذه أو تلك . وسنذكر في ما يلي كيف كان يتراءى برج بابل . فهناك سور ثانٍ يحيط بالزاقورة من جهة الشمال . فهذا البناء الفريد في فن العمارة الدينية هو بناء تقليدي كان يرافق كل المعابد البابلية . وقد قدم سهل بلاد مـا بين النهرين العديد من النماذج المماثلة من مدينة أور وأوروك حتى بلاد أشور ، وهي هنا من أنواع تختلف قليلاً عنها . فالنوع الشمالي وهو النوع الخرصبادي ، يتألف من سطح صلب ترتفع عليه طوابق مربعة الشكل الواحد منها فوق الآخر يتبع ذلك تصغير في أبعادها ، وحيث ننتقل عبر طريق ذات مستديرة تنحدر من طابق إلى آخر . ويبدو أن الايتامانكي حسب أوصاف الكتّاب القدمـــاء هو من النوع نفسه . ولم ير هيرودوت منه سوى الأنقاض لأن كسرى كان قد دك بناءه سنة ٤٧٩ :

لقد بني في وسط الحراب برج ضخم طويل وعريض وذات

قاعدة تبلغ ٩٢ متراً ، ويرتفع فوق هذا البرج برج آخر ويرتفع على هذا الأخير من جديد برج آخر حتى يصل العدد إلى ثمـــانية أبراج . وقد بني الدرج الذي يرقى إليه من الخارج بشكل لولبي يحيط بكل الأبراج . ونجد في وسطه محطة ومقاعد للاستراحة يجلس عليها الذين يرتقونه ليستريحوا .

وقد ذكرت على لوحة الايساجيل أبعـــاد الايتامانتكي وطوابقه . وكانت قاعدته على شكل مربع يبلغ طول ضلعه ١٨٠ ذراعاً وهو قياس يكاد يزيد على ٨٩ متراً . وتدل القياسات التي أجراها الحفارون على طول مقداره ٩١،٥٥ متراً . وتخبرنا لوحة الايساجيل بأن « أبعاده من طول وعرض وارتفـــاع كانت متساوية » . وقد طرحت هذه المشكلة بعدة أشكال ولكنهـا أدت إلى حل مماثل . ومن المفيد أن نقابل هذه المعطيات بأبنية رمزية شبيهة ببناء « اورشليم الجديدة » التي ورد ذكرها في رؤيا القديس حنا التي وصفت وكأنها بناء ديني قائم على أعداد رمزية :

« بغية قياس المدينة ، ابواباً وجدراناً . . .

امـــا الذي كان يحدثني فقد كان يستخدم القصبة الذهبية كمقياس . . . » .

ونشير هنا إلى ان مقياس الطول عند البابليين كان يدعى « كانو » ومن هنا أتت كلمة عصا ، وكانت قصبة بطول ٣ امتار تقريباً .

« قاس المدينة بالقصبة فوجدها بطول ١٢٠٠٠ غلوة [1] ؛ وتساوى فيها الطول والعرض والارتفاع. فقد قاس الجدار ووجده بطول ١٤٤ ذراعاً وهو قياس رجل كان على صورة ملاك ».

بينما يبلغ ارتفاع الايتامانكي ٩٠ م . وكانت السطوح ذات أبعاد غير متساوية . فأولها كان ٩٠ م × ٩٠ × ٣٣ ؛ وثانيها : ٧٣ × ٧٨ × ١٨ ؛ وثالثها : ٦٠ × ٦٠ × ٦ ؛ ورابعها : ٥١ × ٥١ × ٦ ؛ وخامسها : ٤٢ × ٤٢ × ٦ ؛ وقد رمم سادسها : ٣٣ × ٣٣ × ٦ ؛ وسابعها : ٢٤ × ٢٦ × ١٥ الذي يشتمل على غرفة في أعلاها . وتتفق قياسات اللوحة مع قياسات الأنقاض (٩١) ومع حسابات هيرودوت وسترابون (٩٢) .

وكان لبرج الطوابق ، في أور ، ٤ طوابق على الأقل ، هذا إذا أخذنا بالحساب المعبد المقام فوق البرج الأخير . وقد كان ثمة ثلاثة أدراج للوصول إلى السطح ، الأول وهو الدرج الوسطي العمودي وسط واجهة الطابق الأول ، والدرجان الآخران على الحافتين الجانبيتين من جهة السطح نفسها .

ويعود هذا البناء النموذجي الى أول عهود السومريين . وتقول إحدى الفرضيات بأن ذلك قد يكون صورة للجبل ، ذلك

---

١ ـ الغلوة : قياس قديم كان يستخدم لمعرفة الطول (المترجان) .

المرتفع الذي بدأت فيه عبادة الآلهة .

ان دراسة برج الطوابق في ورقة (اوروك) وهو أقدمها ، يدفعنا للتفكير بأن الأثر الأصلي لم يكن مؤلفاً إلا من سطح واحد . لقد دهش المنقبون في اور من نظام تصريف المياه المعقد الذي يبدو بأنه صمم لتفريغ مجاري مياه الطوابق العليا . ويشير أحد النقوش إلى أن هناك بناء موجود في أسفل البناء . وقد تصدع بسبب أغصان الأشجار التي وقعت عليه ، وهذا يدفعنا إلى التفكير بأن ثمة أشجاراً كانت تزين البناء .

ان أفضل زاقورة نبشت ، في تشوجازنبيل ، بالقرب من سور (في إيران) تعود إلى القرن الثالث عشر ق. م وقد اكتشفها جيرسمان . وتخترق أحد جدران السور سبعة أبواب ، تمثل مداخله . وكان طول قاعدة البرج ١٠٥ أمتار وبقي ايضاً ٢٥ متراً من الارتفاع المقدر بـ ٥٢،٦٠ متراً . وفي الطابق الأول رفعت الأنقاض عن معبدين وبعض الغرف الداخلية . وكان ثمة درج ينطلق من أحد أبواب البرج ويؤدي إلى المعبد « الأعلى » .

وتشاهد على أحد النذور البرونزية الواردة من سوزة ، مساحة في وسطها رجلان عاريان (هما على الأرجح كاهنان) يتطهران عند « طلوع الشمس » وعلى جانبي الفسحة يرتفع أثران ، قد يكون أحدهما المحراب والآخر برج الطوابق . وتتألف من

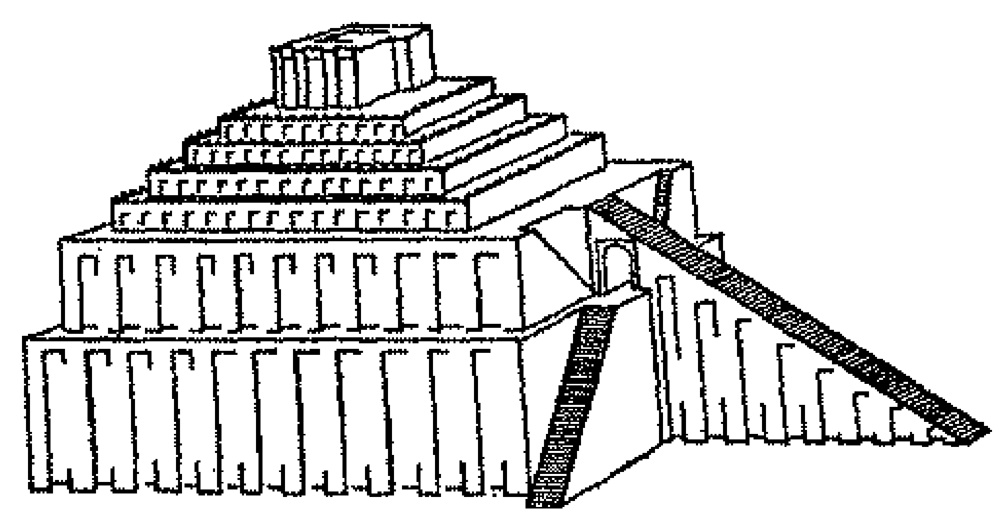
مسطحين فقط . ويتعذر النفاذ إلى المدخل بدرج منحدر . ولا يبدو مطلقاً على المسطح الأول سوى الجوانب المنخفضة إلى اليمين والشمال . ويصل المسطح الثاني ، الذي قد يشكل المعبد ، إلى طرف المسطح الأول من الأمام والوراء . ويتضح تفسير هذا الأثر في ظل توضيح برج شوجازنبيل .

وقد ظهرت في الألف الأول ق. م ، وعلى نقش في نينوى ، في أحد المناظر زاقورة ترتفع على سطح متين . وينتهي قسمها الأعلى ، أي المعبد ، بنتوءات على شكل قرون تُذكر بزينات المعابد السامية نفسها . وتظهر بعض أبواب في وسط مداميك السطوح وكأنها مداخل المعابد . وللصعود إليها يجب أن نسلم بوجود أدراج داخلية .

وبالرغم من براعة علماء الآثار ، يبقى ترميم ابنية برج بابل دائماً خاضعاً للفرضيات. وقد عرضنا تصميم زاقورة أور بطوابقها السفلى والعليا من خلال استلهامنا لوصف هيرودوت لها ، وهو وصف يذكرنا –من حيث الطوابق العليا– بتصميم برج الطوابق في خرصباد . وقد تضرر برج بابل على يد سنحريب إلى درجة لم يتمكن بعدها ابنه اسرحدون من أن يعيده إلى سابق عهده . وقد جرت الأعمال التي قامت بها السلالة البابلية الجديدة على قدم وساق . وقد أشار الملوك نبو بلاصر ، نبوخذ نصر ونابونيد في

كتاباتهم إلى الاصلاحات المديدة التي أجروها فيــه . فنجد نبو بلاصر يقول :

« بأمر من آيا ، وبناء على نصيحة مردوخ ، وتلبية لنصيحة نابو ونيزابا ، ولثقتي بالمهمة الكبرى التي وضعها على كاهلي الإله الذي خلقني ؛ اتخذت في محرابي الخـاص الكبير قراراً . فقمت



الشكل ٦ - « برج بابل »

بقياس الأبعاد بمساعدة عمـال ماهرين مزودين بوحدة للقياس . وقد ركز العمال تلك الحدود . وبنـاء على أوامر شمش واداد ومردوخ وضعت في سري مخططاً كأنه كنز وحفظت قياساته في ذاكرتي . وقـد كشف المستقبلَ امامي كبار الآلهة نظراً لقراري هذا » .

وقد جرى ترميم الايتامانكي على فترتين ، فقد تلقى الملك في

البداية أمر ترميمه من الآلهة في الخراب حيث كان يتأمل . ثم قدمت له آلهة الوحي (شمش واداد ومردوخ) كل المعلومات المتعلقة بالتصميم الذي اوحوه له و كشفوا له المستقبل أيضاً. وبعد هذه المقدمة يبدأ وصف البناء على هذا النحو :

« ففي أساساته بذر الذهب والفضة وحجارة الجبل والبحر الكريمة ، بسخاء ... ومزج الآجر بالزيوت والعطور . وضعت صورة لشخصي الملكي حاملاً سلة الآجر ووضعتها في أساساته . وحنيت رأسي أمام مردوخ. ونزعت ثوبي الذي يشير إلى مقامي الملكي . وحملت الآجر والصلصال على رأسي ، وابني البكر نبوخذ نصر العزيز على قلبي ، حملته الآجر وقرابين الخمـــر والزيت ... »

وقد اشتغل ابنه الثاني أيضاً مع العمال . وفي ما بعد أكد نبوخذ نصر ما جاء في نقوش أبيه :

«اما بالنسبة للايتامانكي ، برج الطوابق في بابل ، فقد أرسى نبو بلاصر أساساته وأقامه على ارتفاع ٣٠ ذراعاً . لكنه لم يبنِ قمته ولذلك قمت انا بهذا العمل . فقطعت شجر الأرز الضخم من الغابة الناصعة في لبنان ، بأيد طاهرة واستخدمته في البنــاء . وجعلت الأبواب العالية في سور الايتامانكي ، رائعة كالنهار ووضعتها في مكانها » .

وهو يشير أخيراً في نقش ثانٍ إلى أن مختلف شعوب امبراطوريته من الشمال والجنوب ، من الجبال والسواحل ، كانت قد ساهمت في هذا العمل . ونفهم من ذلك بسهولة كم جلبة من الرجال استوجب تشغيلها لتحريك تلك الكتل من الأرض. وما أتاحت لنا الحفريات والكتابات معرفته عن بناء برج بابل ، لم يوفر لنا المعلومات بعد عن وجهة استعماله .

دور برج الطوابق . — لقد وضعت الفرضيات العديدة ، حول الدور الذي لعبته الزاقورة في العبادة . فلقد أذاع ديودور الرأي القائل بأنه مراصد فلكية ؛ ويبدو هذا الرأي معقولاً ، لأن الفلكيين كانوا يعملون عادة فوق طبقة الغبار الذي يرتفع من الأرض ، لذلك كانت ملاحظاتهم أكثر دقة . وتشير النصوص إلى المراصد باسم دار الرؤية ، ويقدم أحد هـــذه النصوص الشرح على ذلك بأنه حين يكون المرصد محاطاً بالغيوم يتعذر على الفلكيين رؤية النجوم ! فلم تشر المراصد ، بعلو شاهق ، إلى الحد الذي يخلصها من غيوم الغبـــار التي تكونها العواصف الرملية لأنه لا يرى المرء في ذلك مسألة غيوم عادية . إلا أن الزاقورة لم تبنَ لهذا الغرض . فقد أدلى سترابون بدوره برأيه . فقد رأى أن برج بابل ، الهرم المربع الشكل هو قبر باليس (وباليس الاسم اليوناني الذي يدل على بعل — مردوخ). وسنرى

بأن هذا الرأي الذي يتفق مع رأي ديودور أيضـا ، وهو رأي قد سقط بمرور الزمن ، يستحق مع ذلك أن نقف عنده . فقد زعم بأن ديودور كان قد خدع هو ورواته بالتشابه القائم بين الزاقورة واهرام مصر (وبوجه خـاص هرم الدرجات) التي كانت مجموعة مدافن . فالقضية مطروحة للبحث من جديد . فالافتراض القائل بأنه « مدفن باليس » والذي لا يبدو أن شيئاً يؤكده لغاية الآن، لأنه لم تظهر في أية زاقورة غرف في الطوابق المحفوظة ، قد يجد دعمة جديدة له تعود إلى اكتشاف زاقورة تشوجازنبيل والتي كانت في طوابقهـا السفلى غرف مطينة منذ القديم ، وقد خصصت للاستعمال الديني . ونعرف من خـلال النصوص بأنه كان في الزاقورة مكان سري يدعى « جيجونو » لأن أحد نقوش سنحريب تشير إلى أنه أثناء فيضان في نينوى ، تهدمت جيجونوات المدينة وظهرت عظـام مدافن الجيجونو : وكان برج بابل (أو بالأحرى الجيجونو التابع له) مدفن بعل — مردوخ ؛ ولكنه كان في الحقيقة مدفناً وهمياً خصص ليقوم بدور معين أثناء الأعياد الدينية التي كانت تقام في العام الجديد . وقد ظهر ، في موضع آخر ، ورد في لوحة الايساجيل ، ذكر غرفة أقيمت في أعلى طوابق الايتامانكي. وتعدد تلك اللوحة بالاضافة إلى معابد البرج الستة : في الشرق معابد مردوخ، ونابو وزوجته

تشمتوم : وفي الشمال معابد آيا ونوسكو : وفي الجنوب معابد تابو وانليل (؟) : وفي الغرب التعوم (وهو معبد التوائم) و « معبد السرير » مع الإشارة إلى سرير معين وعرش معين .

يتفق هذا جزئياً مع مسا جاء عند هيرودوت الذي وصف أيضاً البرج ، ولكنه جعل موقع معبد السرير في القمة .

« ومعبد القمة حيث يشاهد المرء سريراً وسيماً مغطى بمظلمة وبقربه طاولة من الذهب . ولا نرى في ما عدا ذلك أي صورة للألوهية . لا يقضي أي إنسان الليل في هـذا المكان ، باستثناء امرأة وحيدة يفترض فيها أن تكون من أهل البلاد يختارها الإله ويعينها الكلدانيون ، كهنة البعل » .

وتشير أشتات نص ، بقيت حتى هذا التاريخ في الظل ، إلى ان « الكاهنة جي – سي هي زربانيت ، قرينته » .

ويمكننا أن نتساءل إذا كانت هـذه المرأة التي ذكرها هيرودت هي بالتأكيد هذه « الكاهنة » التي حلت محل زربانيت زوجة الإله . ويعتقد انه بعد الاحتفال بمراحل « سر » مردوخ المتعددة التي كانت تجري في الايساجيل والايتامانكي وجب ان يتم « قران الإله والإلهة » . ولمـا كان كسرى قد نهب « مدفن باليس » سنة ٤٧٩ ق.م. فقد تهدمت كل تلك الآثار . هنا نتبين

الخلط الذي قام به الكتاب اليونانيون السابقون في تلك الفترة .

ويتطلب الشرح غير الوافي الذي قدمناه ، عن برج بابل الشهير تكملة عن طريق وصف عيد بابل الكبير ، عيد رأس السنة .

٨ الدين في بابل

ملحمة التكوين . — في اليوم الرابع من عيد رأس السنة ، كان كبير الكهنة يتلو ملحمة التكوين . وكانت ترافق هذه التلاوة تعقيبات يرجح ان لفيفاً من الكهنة كان يطلقها ويرددها موازراً كبير الكهنة . وعندئذ كان يحتفل بذكرى انتصار مردوخ على الهباء ، صاحب الجبروت . وكانت تخلد في الوقت نفسه أحداث موته التذكارية ، وقيامته من بين الأموات . فحين يربط المسرء هذه الملحمة بالمشاهد الدينية التي كانت تمثل ، تأخذ الأعمال المنجزة بعد التكوين مدلولات أكثر اتساعاً . ويجدر بنا إذن ان نختصر الموضوع الأساسي لهذه الرواية .

لقد أعيد النظر في « عملية التكوين » القديمة المصدر ، أثناء

عهد السلالة البابلية الأولى في اتجاه كان لصالح مردوخ .

(في البدء) يوم لم يكن للأشياء أسماء ، ولدت المياه الأولية التي كانت مبهمة في بادىء الأمر ، بمعية عنصرين هما : الماء العذب والمـــاء المالح ، اللذين يمثلها أبسو وتيامات — وفقاً لميزاتهما — « المجموعة العليا » و « المجموعة السفلى » . ومن هذين الجوهرين تنبثق آلهة البانتايون [1] البابلي . وفي مـــا بعد أطاح الآلهة بأسلافهم ، وقرر أبسو القضاء عليهم نهائياً . ولكن الإله الشاب آيا تمكن ، بقوة السحر ، من السيطرة على ميدان نفوذ أبسو ! فقامت تيامات تطالب بالثـأر ... فأنجبت وحوشاً ، واتخذت زوجاً جديداً هو كينغو وضعت بين يديه « ألواح الأقدار » . وتملك الخوف الآلهة هذه المرة فانهزموا عند استفحال الخطر . وكان مردوخ ، أثناء المجلس الحربي الذي عقدوه ، هو الوحيد الذي قبل بمجابهة الهباء تيامات ، ولكن كان على مردوخ ، قبل ان يصبح زعيم الآلهة ، أن يتأكد من قدرته ؛ لذلك وضع الآلهة أمامه رداء وقالوا له أن يأمره بأن يختفي ، فاختفى ، وان يظهر من جديد ، فعاد إلى الظهور . وكانت هذه الحادثة قد اشتقت

---

١ ـ البانتايون هو مجمع الأرباب عند البابليين واليونانيين وسواهم من الشعوب القديمة (المترجان) .

من لعبة من الكلمات. ويعدد النص كل الحسنات التي أغدقها الآلهة على مردوخ بعد انتصاره ، ثم يذكر أنهم وضعوا بين يديه مقاليد الأمور .

ومضى مردوخ حاملاً : قوسه والحربة ، والصاعقة ، والاعصار ، والشباك ، و « الرياح السبع » كسلاح ، وامتطى مركبة العواصف التي تجرها أبالسة مجنحة تزفر ناراً .

واحتدم القتال، بالرغم من مرور فترة من الرعب في مواجهة الوحوش التي فكت تيامات سلاسلها ، وهي عبارة عن ثعابين وحشية ، وكلاب كالبة، ورجال — عقارب تنفح بالسم الزعاف. وقد ترك لنا باروز وصفاً لها . فكرّ مردوخ، وأوقع تيامات في شباكه ، وسلّط الرياح على وجهها ، فدخلت في جسدها وهدت كيانها، فلم يبقَ لمردوخ إلا أن يجهز عليها بضربة لازب. وطوّق الإله المنتصر جيش تيامات المهزوم ، فجرّد كينغو من ألواح الأقدار واستولى عليها. ومن هنا أصبح مردوخ سيد كل الأقدار.

وكان على عملية الخلق أن تبدأ آنئذ ، بعدما اتخذت جميع الترتيبات . فحين قدّ مردوخ جسد الإله إلى قسمين خلق السماء والأرض . وبكلمة ، فإنه فصل عناصرهما ونظّم العالم السماوي بعد ذلك . وكان على برج مردوخ (وهو جوبتير) ، ذلك الذي

ابتعد أقل من سواه عن مدار الخسوف والكسوف ، ان ينظـّم منذ ذلك الحين سير الفلك . وفي هذا الوقت كانت رواية الخلق تصل إلى النقطة الرئيسية في الرمزية البابلية . وقد دخلت المعطيات الفلكية في هذا القسم من الرواية. أما ما تبقى من هذه الملحمة فهو نوع من التأليف ، يداخله بين الحين والآخر ملخص عن معلومات العصر. وبإمكاننا الاستناد إلى هذا النص لكي نعيد من جديد صياغة هذه الرمزية التي نجد تثبيتاً لهـا في النصوص والآثار ، والتي لجأت الى الاعداد لتدوين العلاقـات الكونية . وبعد تكوين هيكل الكون ، الـ آ ـ شار ـ را ، حيث سكن انو وانليل وآيا ، كوّن مردوخ عالم الإنسان. اما دم الإله كينغو الذي امتزج بالطين ، فقد أعاده الإله إلى الحياة . وكان الهدف النفعي من خلق عالم الإنسان هو ذلك الهدف الذي أشارت إليه النصوص القديمة : لقد ُخلق الإنسان لخدمة الآلهة .

فلما انتهى مردوخ من عمـله الخلاّق ، بقي عليه أن ينظم أسس العبادة . فبنى عندئذ هيكلاً ، شاءه أن يكون مقامه الإلهي : فكان ذلك المقام الـ اي ـ سا ـ جيل السماوي . ولمـا انتهى من بنائه اجتمع الآلهة في مأدبة لتدشينه ، عظموا خلالها مردوخ ؛ فأنعم كل منهم عليه بلقب أصبح ملازمـاً له . وقد أضفت هذه الأسماء التي تبلغ « الخمسين » (وهو العدد المخصص

لأنليل) ، على مردوخ السلطان المطلق. فتوحدت كل الآلهـــة فيه . فهو بلا منازع زعيم البانتايون الذي لا يدين أبد الدهر .
ويدل هذا التدبير على مهـــارة اكليروس بابل الذي نجح بهذه الطريقة في رفع مردوخ إلى المقام الأول في سؤدد النصر .

وقد جاء في نهـــاية هذه الملحمة ، بالطبع ، إشادة بالإله مردوخ . وكما يشير لابات في ملحمة التكوين البابلية :

« لقد وضع الكهنة هـــذه القوى موضع التنفيذ ، فاعتبروا هذه الأسماء الخمسين كصفات محكمة أوّلوها لتكون في متنـاول الصفوة ، وفقـــاً لعلوم الاشتقاق الاصطناعية الموضوعة بشكل طقسي .

فبابل هي إذاً المقام الرائع لذلك الذي خلّص الآلهة وخلق العالم. فالـ اي ـ سا ـ جيل والـ آيتا ـ ما ـ تانكي هما مسكنه الدنيوي حيث تجري في رأس السنة الاحتفالات التي تعيد إلى الأذهان تلك الأحداث التذكارية التي تقرّرت فيها أقدار العالم .

عيد رأس السنة . ـ وعيد رأس السنة ، الذي يدعى عيد « الاكيتو » ، هو أهم كل تلك الأعياد التي يحتفل بهـا في بابل . فقد عرف هـذا العيد في العهد السومري شهرة واسعة . وتدل المعلومات على أن أعياد الاكيتو أقيمت تكريماً للآلهة المحلية في مختلف البلدان . لكن عيد بابل كان يأخذ حجماً يتناسب مع

أهمية العاصمة وعبادة مردوخ . أمــا في العهد الذي سبق السلالة الأولى ، فكان يحتفل بعيد رأس السنة في أوقـــات متفاوتة ، ولكنه في أغلب الأحيان كان يقام في شهر تشريت ، أي عند الاعتدال الخريفي ، وكانت السنة تبـــدأ في ذلك التاريخ ، وللأكيتو أحياناً عيدان : عيد الخريف ، وعيد الربيـع ، وكان هـذا الأخير هو العيد الذي استمر في بابل بعد حكم حمورابي . وكان يحتفل بعيد رأس السنة إبان اعتدال الربيـع ، في بداية شهر «نيسان» ، الذي يناسب تقريباً شهري آذار ونيسان في التقويم الغريغوري ، وشهر نيسان في تقويم يوليوس قيصر . وكان يحدد فترة هذا العيد ظهور نجمة « هينغـا » القريبة من الشمس أي : الفا برج الحمل . وكان هذا الاحتفال يستمر اثني عشر يومـاً . وكانت مدينة بورصيبا على علاقة ايضـاً بمختلف مراحل العيد ، وكان الإله نابو ، ابن الإله مردوخ ، وشفيع المدينة يلعب دوراً رئيسياً خلال تلك الأيام . وكان الإله نابو بصفته « كاتباً للآلهة » يسجل الأقدار السنوية التي تعينهـــا جمعية الآلهة . ومن جهة أخرى ، كانــ ينجي أباه أثناء المراسم الدينية المدعوة مراسم « اختفاء » مردوخ . وكان ملك بابل يشترك اشتراكاً فعّالاً في الاحتفالات . فهو مكلف القيام بحركة « الأخذ بيد الإله » الرمزية ،

ودعوته للمسير أثنـــاء « التطواف الكبير » وهو الذي يوصل مردوخ إلى معبد يقع خارج المدينة المدعوة « بيت الأكيتو » ، حيث كان يبيت قبل وصوله إلى العاصمة . فعندما كانت تنتاب الملك نوبة من الأسى ، أو عندما كان يطوف حول المدينة ، كان ينبغي بالطبع إلغاء التطواف ، فلا يخرج مردوخ من هيكله ، ولا يأتي الإله نابو من بورصيبا لينضم إلى والده . فقد كان في إلغـاء العيد حداد وطني لم يفت **سجل الأحداث البابلية** أن تشير إليه . وهكذا فإنه عندما كان آخر ملك ، وهو نابونيد في تايما ، فقد دوّن **سجل الأحداث** هذا الخبر :

« سنة ... لم يأت نابونيد إلى بابل ، ولم يذهب الإله نابو إلى بابل ، ولم يخرج البعل ، وتوقف عيد الاكيتو » .

وسنرى في ما بعد الحزن العميق الذي ينطوي عليه الإيجـاز البالغ الذي تركته لنا النصوص المدونة حين سقطت بابل على يد قورش .

الاحتفالات . — بوسعنا أن نستعيد ذكر الاحتفـالات التي كانت تجري بمناسبة عيد رأس السنة بفضل مراسم العيد .

الأيام السبع الأولى . — لا تزال ذكرى الاحتفال بأول يوم من عيد رأس السنة مجهولة .

الثاني من نيسان : ينهض كبير الكهنة قبل الفجر بساعتين ،

ويغتسل بماء الفرات ، ثم يدخل قدس أقـداس هيكل مردوخ مرتدياً بذلة من الكتان . وفي الصلاة التي يقدمها له يشبه بابل بعرش الإله ، وبورصيبا بتاجه ، والسماوات الفسيحة بأحشائه . وتكون هذه الصلاة سرّية لا يرددهـا سوى كبير الكهنة لوحده في قدس الأقداس . ولا يتم ذلك إلا بعد فتح الأبواب ودخول الكهنة الآخرين أيضاً إلى الهيكل . وترافق المراسم عندئذ الموسيقى والأغاني الطقسية . ولم تتوفر لنا معرفة بقية احتفالات ذلك اليوم .

الثالث من نيسان : بعد الصلوات الأولى ، يستدعي كبير الكهنة رجالات الفن ، ويقدم لهم الذهب ، والحجارة الكريمة من كنز مردوخ ، والأرز والمن كذلك ، فيقوم هؤلاء بصنع تمثالين ذهبيين صغيرين مرصعين بالحجارة الكريمة ، يحمل أحدهما ثعباناً ، والآخر عقرباً (وهمـا رمزان للقوى التي في باطن الأرض) ، ويلبس هذان التمثالان رداء أحمر بالإضافة إلى حبل من ليف النخل يشد خصريهما . وينصبّان في الهيكل حتى مجيء اليوم السادس .

الرابع من نيسان : تبدأ الصلوات والاحتفالات باكراً قبل طلوع الشمس ،وعندما يبارك كبير الكهنة الـ اي – سا – جيل ، تفتح الأبواب لباقي الكهنة على غرار الأيام السابقة . ففي النهار ،

وبعد وجبة المساء الخفيفة، يتلو كبير الكهنة أمام مردوخ **ملحمة التكوين** الشهيرة . وأثناء هذه التلاوة يزاح الستار عن تاج الإله أنو وعرش الإله انليل .

الخامس من نيسان: في المساء ، تتلى الفروض والصلوات التي تشبّه نجوم السماء بالإله مردوخ وبزوجته زربانيت ، ويدعو كبير الكهنة معزّماً يحمل ماء طهوراً وناراً وبخوراً ، ليقوم بتطهير الهيكل. ويقطع أحد المضحين رأس خروف (أو رأس حمل)، فيأخذ المعزّم جسم الحيوان ويمسح به الهيكل ليمتص أرجاسه ، ويتلو بعض التعازيم لكي يحمل الحيوان كل الآثام معه ، ثم يرمي جثته في النهر . ويبدو أن لدينا في هذا نموذجاً مماثلاً « لكبش المحرقة » . وعن طريق هذا العقاب الذي يلحق بالحيوان ، كان يعتقد أنه كان يتم القضاء على الشر الذي يتحمل الحيوان وزره بدل الإنسان الخاطىء ، وعلى أثر هذا التحويل ، كان يعتقد بأن العقاب رفع عن المجرم الحقيقي. وعلى أثر ذلك يترتب على المعزّم والمطهّر ترك الهيكل ، وعلى كبير الكهنة من جهته ألا « يحضر » هذا الاحتفال . فعندمـــا ينتهي كل شيء ، يدعو كبير الكهنة خدّام الهيكل الذين ، بفضل « سماء مردوخ الذهبية » يغطون المعبد المخصص للإله نابو في الايساجيل ، وهو يحمل اسم : أزيدا وهو الاسم ذاته الذي يحمـــله قدس أقداسه في بورصيبا .

وتحضر مأدبة ينقلها خدام الهيكل إلى شاطىء القناة ، حيث ينتظر وصول الإله نابو (أو على الأقل تمثـــاله) ، الآتي من بورصيبا في مركبة . وعندئذ يقام في الهيكل، أي الايساجيل، الاحتفال المدعو « إذلال الملك » الذي سيأتي ذكره عند عرضنا للتظاهرات التي تقوم في المدينة ففي بداية الأمر ، كان يتوجه كبير الكهنة قبل هذا ، إلى مقام الإله مردوخ ، ومن ثم كان يخرج ويبتهل إلى زربانيت بهذه العبارات :

ايتها الشفيعة ، السامية ، الرفيعة المقام !
التي لا مثيل لها بين الآلهات ،
المتيهمة التي تأخذ جانب الدفاع !
يا من تخفضين المتكبر ،
وترفعين المتواضع ،
يا من تجندل من لا يرهب ألوهتها !
يا من تخلصين الأسير ، وترفعين
من يقع ! ... يا من
تحددين قدر الملك الذي يخافك !
ويا من تمنحين بابل محارباً يحمي حماها !

وبعد هذه الصلوات ، يأخذ كبير الكهنة الشارات الملكية

من يدي الملك ، ويضعها أمام تمثال مردوخ ، ثم يصفع الملك على وجنته ، ويشده من أذنيه ، ويركعه ، ويطلب إليه أن يتلو اعترافاً سلبياً شبيهاً بذلك الاعتراف الذي يكرره على قوله الخاطىء الذي ينبغي طرد الأرواح الشريرة منه : « اني لم أخطىء تجاه الإله ولم أتآمر على عظمة الإيساجيل ، ولم أنسَ طقوس عبادته » .

وبعد أن يُهدىء كبير الكهنة روع الملك ، يعيد إليه شاراته ويصفعه من جديد . ويقول النص المكتوب :

« ويصفع وجنة الملك : فإذا جرت دموعه اغتبط مردوخ ، وإلا فإنه يغضب ، فيشن العدو هجوماً على بابل ويهزمها » .

وفي آخر النهار ، تحفر جورة في فناء الهيكل ، وتملأ قصباً ، وتفرغ فوقها كمية من الزيت والشحم ، وبعد نحر ثور أبيض على حافة الجورة ، يشعل الملك ذلك القصب . (ولكل من هذه المراسم مدلول معين) . ويُفترض بالشارات الملكية أن تكون في السماء ، وحين تشير النصوص المكتوبة في بداية القائمة إلى السلالات التي حكمت بلاد ما بين النهرين أن الملكية أتت من علٍ ، فإنهم يدللون بذلك ان الآلهة هي التي منحت السلطان للناس ، وكان هذا السلطان كما أشرنا سابقاً ، قد أعطي قديماً للملك بواسطة الإله انليل من نيبور . ومنذ السلالة الأولى ، كان

بعل – مردوخ هو الذي يختار بعد ذلك الحين ملك بابل .

السادس من نيسان : ليس لدينا أي نص عنه ، ومع أنه ليست لدينا أية إشارة عن دخول الإله نابو ، يمكننا مع ذلك الظن بأنه كان ينبغي إيواؤه مساء اليوم الخامس . وينبغي أثناء الأيام التي تسبق الثامن من نيسان ، الخامس أو السادس منه على الأرجح ، أن تصل تماثيل الآلهة من هياكلها الخاصة لتحضر تلك الاحتفالات . وكما تخبرنا تلك الأناشيد التي وصلتنا ، كانت تلك تماثيل الآلهة الكبار : انو ، انليل ، آيا ، سن ، شمش ، اداد ، نينورتا ، وزوجاتهم ، وكذلك عشتار . وكانت تقام ربما أيضاً مشاهد « سر آلام مردوخ » . وكان ينبغي أن يمثل هذه الدراما أشخاص أحياء بدل التماثيل . وقد جاءت تلك النصوص تحت هذا العنوان :

« موت وقيامة بعل – مردوخ » . – ومما يثير الاهتمام ان هذه المراسم تتأتى من أوساط دينية مختلفة ، في حين ان لهذه المراسم شبهاً معيناً في ما بينها ، حتى أنها تبدو وكأنها تنتمي لموضوع واحد ، دون أن يكون بوسعنا ان نؤكد مع ذلك أنها تنتمي جميعاً إلى مذهب بعل – مردوخ .

وهذه بعض « **التعليقات** » على المشاهد الايمائية التي تكاد تكون رمزية ، وهي تشرح ذهاب الأشخاص وإيابهم ، والحركات

التي يقومون بها . ولسوء حظنا ، فإن النصوص التي غالباً مـا تكون اشتاتاً مبعثرة ليست دائماً مفهومة . وقد اخترنا من بين تلك التعليقات المعروفة مختارات من سيناريو « دراما » آلام مردوخ وهو بعنوان :

يمثل هذا المشهد البعل عندما كان في الجبل مقيداً بالسلاسل.

(وعبارة « الجبل » هي تورية للدلالة على القبر) .

والاشخاص الذين يظهرون على المسرح ويمثلون هم موضوع شرح ليس دائماً مفهوماً تماماً ، ولا كاملاً . وإليك بعض مقاطع من ذلك الشرح :

يصل شخص معين فيشرح المعلق من هو :

ثمة رسول يستعجل الخطى قائلاً :

« من سيخرجه ؟ »

والمقطع التالي يتنبأ بوصول المخلص نابو :

هذا القادم يخلصه .

ويذهب أحد الأشخاص إلى « الجبل » حيث تعقد هنـاك جلسة استجواب :

ذلك الذي يقصد الجبل ...

هو الذي يذهب ...

فحيث يذهب ، يكون هناك البيت

الذي يستجوب فيه على حدود الجبل
وصول نابو :
ويصل نابو إله بورصيبا
انه قادم ليخلص والده
« المسجون » .
ويخترق موكب من النساء الشوارع وهو يتضرع لآلهة الوحي
من أجل البعل :
اللواتي يجتزن الشوارع ،
من تلك اللواتي يتضرعن إلى سن وشمش
قائلات : « أعد بعل إلى الحياة ! »
وتبحث امرأة عن البعل وتتوسل إليه بأن يقول لها أين هو :
تلك التي تبسط ذراعيها
نحو أولئك الذين يبحثون عنه ، قائلة :
« اين هو مسجون ؟ »
وتذهب هذه المرأة إلى القبر :
الباب الذي تذهب نحوه ،
هو باب المقابر ؛
انها تذهب لتبحث عنه
ويقوم الآلهة بحراسة المقبرة :

ان التوائم الواقفين على باب الايساجيل ،
هم حراسه ،
وهم مأمورون للقيام بهذه الحراسة .
وكذلك قبل أن يبدأ أحدهم بالانتحاب المفجع :
ان الذي ينتحب يقول :
« بعد أن سجنته الآلهة ،
اختفى من عالم الأحياء » .
« لقد أودعوه سجناً ،
لا تدخله الشمس ولا يدخله النور » .
ويقوم الحاضرون بإلباسه لباس الموت :
ذلك المطروح أرضاً ،
واولئك الذين يقتربون منه
ليدثروه .
وتغسل جراحاته :
تلك هي الجراحات التي اثخن بها ،
وهم الذين ُخضبوا بدمائه .
وتركع الآلهة على مقربة منه ، فيقول التعليق :
أما الآلهة التي تركع إلى جانبه ؛
فقد نزلت لكي تخلصه .

ويذكرنا هذا المقطع « بنزول عشتار إلى الجحيم » .
ثمة أشتات مبعثرة أخرى أكثر غموضاً :
أما الرجل ... الذي لا يود الذهاب معه
والذي يقول : « أنا لست مذنباً ! »
والتعليق التالي يدل على أن ثمة « دعوى » قد أقيمت :
الرجال ... أمامه بسطوا دعواي ،
وحقي مزقوه إرباً !
وفي مكان آخر ، توصف ضجة المدينة على هذا النحو :
حدث ذلك بعد ان ذهب بعل إلى « الجبل » ،
فقامت الاضطرابات في المدينة بسببه .
وأخيراً يصبح التعليق التالي أكثر وضوحاً ، ويدل على أن تلك الأعمال قد قام بها المجوس الذين حلوا محل أبطال المأساة :
ويذهب المجوس أمامه
فيرتلون تعزية ،
وهؤلاء هم الناس الذين يتقدمون منه
متفجعين .
ويصف المشهد الأخير أسى الرسول ، وألم الآلهة .
إن المجوسي الذي يذهب أمام باليت بابل :
هو نذير الشؤم وهو يبكي مطرق الرأس

قائلاً : « يأخذونه نحو « الجبل » !
أما هي فترسل هذه الصرخة :
« يا أخي ! يا أخي ! »
وقد نُسخت بعض هــــذه الأشتات المبعثرة لصالح مكتبة اشور بانيبال، وكان ينبغي ان تبقى هذه « التعليقات » اسراراً، وتنتهي اللوحة على هذا النحو :
أياً كان من يتلف هذه اللوحة ،
أو يرميها في الماء ،
أو من يعرضها على من لا ينبغي أن يكون له علم بها، أو سماع بقراءتها ، فلتلعنه كل الآلهة العظيمة في السماء والأرض لعنة لا مرد لها .
ويمكننا أن نخلص من كل هــــذه النصوص بأن « الدراما المقدسة » ، كما يبدو ، تمثل تمام التمثيل مختلف مراحل « آلام مردوخ » .
ونعثر على فكرة « موت » الإله حين يدور الحديث عن الوهات يكون لاختفائها أثر في إيقاف الحيـاة على الأرض كما في « نزول عشتار إلى الجحيم » ، وكما في أسطورة تالابينو عند الحثيين ، أو في مـا بعد في أسطورة أدونيس في فينيقيا . ولاسطورة بعل ـــ مردوخ أيضاً تشابه مع أسطورة أوزيريس في

مصر . وفي المشاهد التي أشرنا إليها يبدو أن مردوخ الذي لحقت به في هذه الكارثة ، قد نجا على يد الإله نابو . ونجد هذه الحادثة أيضاً في بلاد اشور التي اتخذ إلهها القومي الطباع ذاتها بالإضافة إلى طباع أخرى مأخوذة عن مصدر قديم جداً . لكن مردوخ لا يظهر في بابل كإله للخصب فحسب ، بل إنه أكثر من ذلك بكثير : فهو الإله الذى قهر الهباء وهو السيد المظيم ، «ومنظم» الكون .

فعند البحث عنه ، أثناء اختفائه ، تطلق في المدينة عربة تجرها أربعة جياد ، وتكون هذه العربة بلا سائس ، ويجر كل جواد العربة لجهته زارعاً الرعب والهلع . ويبدو أن العربة ترمز إلى السيطرة على الكون ، فهي عربة مردوخ التي غاب عنها قائدها. إنها صورة للفوضى العامة التي يحدثها اختفاء الإله القائد. وثمة مشهد رمزي كان له علاقة بالاحتفال الذي يجري في الهيكل ، هو يوم الخامس من نيسان وهو يتعلق بالملك . ففي المدينة موكب يقوده« أحد ملوك المجانين» ، وهو يرتدي ملابس ملوكية ويحف به رجال متنكرون يقومون بأعمال غير مسؤولة ، ويتبع هذا الموكب جمهور في حالة الهذيان ، ويبرز هذا المشهد الكرنفالي دور شخص « غير مسؤول » ، هو على الأرجح أحد المحكومين بالإعدام يقوم بدور ملك خيالي مؤقت ، بينما لا يقوم الملك الفعلي

بأي عمل علني. فعند انتهاء مراسم النزاع، كان يذهب «البديل» الملكي « ليلاقي حتفه »... فيسترجع الملك عصا السلطان. وتمثل هذه المراسم البابلية إحياء مخففاً لأولئك الذين أمكن كشفهم في أور منذ عهد قديم جداً في مقبرة يقال لها « مقبرة الملوك » حيث كان هنـــاك علاوة على ذلك اغتيالات طقسية جماهيرية. وفي ظروف قيل انها كانت قاسية على الملك، كان بوسع «بديل معين» ان يتعرض لموت من نوع طقسي، أو رمزي. ولما كان عيد رأس السنة رمزاً للحياة المتجددة. فقد كان الملك يشترك في مراسم يفترض فيها أن تمنحه سلطاناً متجدداً.

وفي الهيكل أخـــيراً، كان يقطع رأسا التمثالين الصغيرين اللذين صنعا في بداية الاحتفالات ويطرحان في إحدى المجامر.

التطواف الكبير في اليوم الثامن. – كان اليوم الثامن ذروة هذا العيد. ومع أن النص لا يشير إلى ذلك، فإن عودة الإله مردوخ هي التي ستعود إلى « البروز » أو « الظهور » في المدينة. فمنذ الصباح تخرج كل الآلهة الآتية لتكريم مردوخ وتجتمع في هيكل الأقدار حيث تصدر المراسيم بمصائر السنة. ولم يفت البابليين أن يطلقوا التمنيات الحارة لكي تكون الأقدار مؤاتية لهم. وتنهض تماثيل الآلهة خلال تلك المشاهد وتجلس وتتلفت يميناً ويساراً. فهل المقصود هنا هو التماثيل، أو الدمى الناطقة،

أو تمثيلات عنهـا ؟ قد يكون بوسع عربات « الكرنفال مع عمالقتها » الناطقين والمعاصرين أن يظهروا رونقهـا . وقد عثر المنقبون على عدد من التماثيل الإلهية قليل نسبياً . وبإمكاننا مع ذلك ان نفترض انه في بابل ، كما في مصر ، كانت توجد تماثيل خشبية اختفت كلياً . وقد تكون تلك التماثيل ممثلة للإله ، وثمة مراسم مثل « فتح الفم » أو « تطهير الفم » كانت مخصصة لكي تبعث فيها الحياة . وفي بعض الأحيان كان على هـذه التماثيل أن تجيب بإيماءة من الرأس . وقد عثر بارو في تنقيبات مدينة ماري على تمثال لعشتار وهو يضم إناء مفرغاً إلى صدره . وثمة مجرى في هذا التمثال يتصل بقعر الإناء . وقد كان من الممكن إذاً إفراغ كمية من الماء خارج الإناء «السحري » ، بفضل عملية آلية خاصة.

وعندما كانت تجتمع التماثيل للمرة الأولى في هيكل الأقدار كان الملك يقودها إلى أماكن جلوسها ، وهي تلبس أفخم الحلل ، فتصطف في فناء الهيكل وحولها خدمها وقد حملت لها شاراتها ، وعندئذ تكون أجمل العربات في انتظارها . فيجري احتفـال « الأخذ باليد » التقليدي الذي يقوم به ملك بابل إشارة لبدء المسيرة . وعندئذ كان يُبتهل إلى الإله مردوخ وزوجته على هذا النحو :

اخرج أيها السيد فإن الملك بانتظارك !... ها هو سيد بابل

يخرج ! وتخرج زربانيت !... وجنباً إلى جنب تنفخ خادمات عشتار بابل بالشبابة فتنطلق في بابل صيحات الفرح !

وخلال كل تلك الاحتفالات كان يلاحظ المرء بدقة جميع التفاصيل التي كانت تستنتج منها التكهنات التالية :

إذا مسك الملك يد البعل وتعثر فستلحق به مصيبة ! وإذا تعثر أحد جياد الإله فقدت البلاد صوابها ! وإذا تحطم شيء ما في مركب الإله ، أقامت الآلهة الأرض وأقعدتها .

وكان التطواف الكبير المنطلق من هيكل الأقدار عن طريق بوابة الايساجيل الشمالية ، أي الباب المقدس ، يصل إلى جادة ايبورشابو (« فليحمه الإله من الهزيمة ! ») التي كانت تفضي من الغرب إلى الشرق بين الايساجيل والبرج ذات الطوابق ، أي الايتامانكي ، ثم ينعطف نحو الشمال كاو يمتد شرقي سور القصر ، ويصل إلى باب عشتار ثم يخرج إلى الطريق التي ينطلق فيها التطواف حتى وصوله إلى نقطة التقاء قناة أرتو بنهر الفرات. وكان من السهولة بمكان الاحتفال بهذا العيد العظيم الرافل بهذه الزينة الخلابة من القرميد المرصع بالعاج ! وعندئذ كانت تنقل الأصنام من عرباتها إلى سفنها ، وكان ثمة معبد للاستراحة كانت ترتل فيه التراتيل خلال هذه الأثناء :

ايها السيد ، لماذا لا تقيم في بابل ، أليس عرشك منصوباً في

الايساجيل ؟

ويعد الوداع ، كانت المراكب تمخر عبـــاب الماء « لامعة كالنجوم » ، وعلى مقربة من ذلك كان الآلهة يترجلون ويعودون إلى عرباتهم باتجــاه « بيت الاكيتو ، بيت الصلاة » في الريف . وكان مردوخ يبيت هو والآلهة في « الاكيتو » من اليوم الثـامن حتى اليوم الحادي عشر. وتذكرنا الاحتفالات التي كانت تقام في الاكيتو بالأعمال الرمزية لخلق هــذا العالم الذي خلقه مردوخ . وكان ذلك عيداً احتفاليــاً ، ويعتقد بعض المتبحرين في الحضارة الأشورية ان « الدراما المقدسة » كانت تتلى فيه أيضاً .

اليوم الحادي عشر . الرجوع إلى بابـــل : وفي اليـــوم الحادي عشر تعود الآلهة ليلاً على ضوء المشاعل فتسلك من جديد طريق بابل . وبوسع المرء أن يتصور بسهولة هذا الموكب الرائع بمشاعله السائرة في الشوارع ، وأنواره تنعكس على جدران زاهية الزينة كانت تظهر عليها حيوانات خرافية بأشكال عجيبة !

وكان يحيي مردوخ لدى دخوله الايساجيل بهذا النشيد :

أيها السيد ، عندما تعود إلى ديارك ، فإن ديارك تقول لك : « السلام عليك أيها السيد ! » « لا تتوك بابل ، مدينة فرحك غير « مأهولة ! »

وعندئذ كان يعقد الاجتماع الثاني والأخير في هيكل الأقدار.

وكان الإله نابو، كاتب الآلهة، يسجل القرارات التي كانت تتخذ طابع الوحي الإلهي.

وقد جاء في أحد النصوص: «في شهر نيسان... هنـــاك أعياد مردوخ وزربانيت «...» مردوخ العارف بكل الأمور يتوجه إلى حفلات زفافه». ويقاد مردوخ أثنـــاء ذلك إلى «غرفة زفـــافه» التي تعرف اليوم باسم «غرفة السرير» في الايتامانكي. وكان ينتهي عيد الأكيتو «بزواج مقـدس» هو عبارة عن زواج في المعبد. وكان يجري ذلك بشكل دائم على الأرجح. وبسحر رهيف كان يسلّم الناس بأن لهذا العمل مضاعفات على الأرض عن طريق تسهيل الولادات ونمو الكائنات الحية والنباتات. فقد كان عيد رأس السنة ذكرى الدين البدائي الذي لم يغب أبداً عن بال الدين البابلي. وكانت تقدم فيه هـدايا الأعراس، كما كانت العادة في بلاد ما بين النهرين القديمة. وكان الإله يقوم بتقديم الهدايا الرائعة لزوجته. ويذهب بنا الاعتقـاد للقول بأن «للصباحية» أي هدايا عيد رأس السنة علاقة مباشرة بالعادة البابلية القديمة.

وقد لاحظنـــا أن الزواج الرمزي للإله يبدو وكأن كتّاب الإغريق قد وصفوه، فهو يتم في غرفة في أعـــالي البرج المعظم ذات الطوابق، حيث كانت تقيم الأنثى المختارة لتمضي

ليلها فيه ، والتي نعتقد ان بوسعنا تشبيهها « بالكاهنة » التي تلعب دور الالهة زربانيت .

اليوم الثاني عشر : في صباح اليوم الثاني عشر ، يعود الإله نابو إلى بورصيبا ، ويعود الإلهة الآخرون ، كل إلى قدس أقداسه ، وبذلك تنتهي الأعياد ويبقى مصير بابل سائراً حتى نهايته .

٩ مصير الاله مردوخ

لقد كان للإله مردوخ مكانة فريدة في بابل .

فكيف ارتفع هذا الإله الذي يكاد يكون مجهولاً ، أو على الأقل وضيعاً جـــداً ، إلى المصاف الأول في البانثايون البابلي ؟ الحقيقة ان مصير الإله مردوخ ارتبط بمصير بابل ، فقد كبر معها ، وخفت نجمه يوم اندثرت معالمها . ولمـــا سقطت بابل تنبأ النبي أرميا بانتهاء مذهبه :

ستسقط بابل ! ويلتبس الأمر على البعل ! ويتحطم مردوخ !

ولم يتخذ مذهبه هذه الأهمية بشكل مفاجيء . ففي القرن التاسع عشر ق. م عندما استأثر وجهاء الأموريين بالسلطان ، واختاروا بابل عـــاصمة لهم ، كان إله سيبار ، الإله الشمس

(شمش) ، هو الشفيع الذي فضلوه على سواه . فقد كان يمثل إله العدالة حسب شريعة حمورابي . وكان هذا الملك العظيم ، بالرغم من تشيعه لمردوخ ، يبتهل بادىء الأمر إلى الإله شمش :

انا حمورابي ، صفي الإله شمش ، وحبيب مردوخ .

وقد احتفظ شمش بدور الإله الشفيع أثناء حقب هـذه السلالة العديدة . وفي غالب الأحيـان كان للألوهات المحلية في البانتايون السومري – الاكادي دور عابر جداً ، لم تتجاوز مدته مدة النصر الذي أحرزته مدينتهم بشكل عابر وبسيطرة عابرة. ويمكننا التسليم بأن مردوخ كان ألوهة محلية فرضت نفسهـا تدريجياً على الفاتحين من السلالة الأولى. وانتهوا بتبني هذه الألوهة كإله للعـاصمة ، وأصبح مردوخ بالتالي الإله الرئيسي والإله « القومي ». ولم تكن السياسة هي التي ساعدت في ذلك كثيراً فحسب ، بل اكليروس بابل ايضاً ، الذي دلـّل بهـذه المناسبة على لباقة عظيمة .

وعمل اكليروس بابل جهده ليشكل حول إسم مردوخ هالة كانت تهدف إلى تشتيت كل المذاهب الأخـرى وإلى خلق جو نفسي ، لكي لا نقول هوساً ، لم يكن بمقدور أحد أن يفلت منه .

وأثناء تولي السلالة الأولى السلطة ، كانت المعابد المشهورة آنئذ هي معابد : سن (الإله القمر) في أور ، وشمش (الإله

الشمس) في لارسا ، وسيبّار، أما معابد القوى الكونية العظمى التي تسيطر بالفعل على كل البانتايون والتي تحمل المرتبة الأولى فكانت كما يلي: في اوروك ، معبد الإله انو، الإله السماوي الكبير الذي ارتبط اسمه باسم الإلهة اينانا - عشتار (فينوس) التي هي مبدأ الأنوثة في الخصب والانجاب ؛ وفي نيبور معبد سيد الجو انليل، سيد البلدان وإله الملوك ، والإله نينورتا ابنه ، وأخيراً في أريدو معبد الإله آيا (آن - كي) ، سيد الابسو ، وهو عنصر سائل يغلف السماء والأرض والجحيم ، وعليه يرتكز العالم .

ولقد كان من المستحيل التوصل كلياً إلى إلغاء هذه المذاهب القائمة منذ قرون عديدة . وقد عمد الاكليروس البابلي إلى حيلة أتاحت لإله بابل ان يكون مرتبطـاً بالألوهات المحلية ، وأن يتقدمها جميعاً عن طريق امتصاصها .

فقد أغدقوا عليه السلطان الأعظم ، فأصبح « أقوى الآلهة » في الأناشيد والصلوات .

وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن إلهاً واحداً بقي خارج هذه الصراعات : هو الإله أنو . فأنو هو « والد الآلهـة » الجوهر السماوي الكبير الذي وضع على رأس البانتايون كإله للسماء (والأرض) لم يشر إليه إلا باسمه: علامة AN ، الشمار السماوي .

وقد بقيت هذه الألوهة مكرمة بالرغم من الضجة التي أطلقت حول شخصية مردوخ . فـ « أنو » هو الذي نجـــده في المرتبة الأولى في عهد السلوقيين . فقد كان يقترب آنئذ من مبدأ كوني كان لا يزال غير محدد بوضوح . ومن جهة أخرى يمكننا الاعتقاد أيضاً بأن تقوى الشعب التي أعادت في ذلك العهد لـ ننانا ـ عشتار الولع المتزايد بعبادته من جراء الصـــلة بالمذاهب الهلينيستية في فينيقيا ، عادت تسلك طريق المعبد القديم الذي كان يكرم فيه إلى جانب الآلهة ، الإله أنو ، والده .

ونحن نفترض إذن أن الاحتواء الذي قام به الإله مردوخ كان يتركز على ألوهات كانت في عهد السلالة الأولى أكثر قرباً وشعبية . وكان الإلهان انليل وآيا أول الذين احتواهم . فقد كان انليل وهو ابن أنو، يحتل منذ العهد القديم مركزاً مرموقاً . وقد نال لقب « إله البلدان » الذي ضم إليه بسرعة فائقة لقب « إله السماء والأرض » ، متعدياً بذلك على ألقاب والده أنو . وتشير النصوص إلى أن الإله انليل تعرض للآلام عند حصوله على صفات انليل ، وقد اتحـــد مردوخ به ، وأخذ لقب البعل الذي يعني (السيد) ، ودعي منذ ذلك الحين :

سيد آلهة السماء والأرض ، وملك آلهة السماء والأرض ، وملك كل الآلهة والملوك وأخيراً :

الزعيم الأعلى لكل السادة .

وكان لاتحاد مردوخ بأنليل نيبور عدة نتائج . فقد تم في بادىء الأمر إغداق الملكية على مردوخ ، ليس على الأرض فحسب ، بل على الآلهة الأخرى أيضاً ، ونظراً لأن الملك كان يكرّس في مدينة نيبور – وتأتي هذه المدينة أيضاً بحسب شريعة حمورابي في مركز لائق – فحين احتلت بابل المرتبة الأولى تعين عليها ان تحل محلها . ويؤكد ذلك حمورابي في حديثه الثاني :

« عندما اغدق انو وانليل القوة الكلية على مردوخ وهما اللذان أسسا من أجله الملكية الأزلية في بابل » .

ولما جعلا من مردوخ إلهاً عظيماً (« أقوى الآلهة ») فقد ألصقت به بالفعل عملية الخلق بكاملها . ويبدو من النصوص السومرية القديمة ان الإله آيا (ان.كي) هو خالق العالم ، والاسطورة التي نقلها بيروز عن اوانس تبدو انها تعود بالتأكيد لهذه الألوهة . وكانت أهمية مذهب آيا في أريدو لا تضاهى . فبإعطائهم للإله مردوخ الإله آيا كأب ، أصبح هذا الإله شمبياً أيضاً ؛ وأصبح إله الحكمة والعلم ، ومن ثم إله السحر والطب . ولا تأتي النصوص السومرية القديمة المتعلقة بالإله ان كي ابداً على ذكر الإله مردوخ . فبنوته هي إذاً لقب ثانوي . فقد ولد الإله مردوخ في الأبسو ، وهو يتحدر من الأبسو كباقي الآلهة المولودين

من تيامات وأبسو ، لكن ملحمة التكوين تعترف بوالدين لمردوخ هما : لاهمو وقرينته الأنثى لاهامو . وقد نقلت هذه الأسماء إلى آيا وزوجته دامكينا . ووفقاً لمـــا جاء في النص فقد « ولد » مردوخ في « كيسو » الأقدار . وقد رويت ولادة هذا الإله على النحو التالي :

« عندئذ في كيسو الأقدار ، في هيكل الأقدار ، ولد إله هو حكيم الحكماء ، وأكثر الآلهة علماً » .

في كنف الأبسو ولد مردوخ ...

ناصعة كانت بشرته ، ووقادة نظرة عينيه ؛ وكانت ولادته ولادة ذكر ، فقد ولد منذ البداية ...

وفاق مجده مجد الآلهة ، وتخطاهم جميعاً .

وكانت أبعاده فنية وتصعب الاحاطة بها ، ويستحيل فهمه ، ويصعب على النظر أن يراه بكامله .

وأعينه أربع ، وأربع هي آذانه ...

ويتوالى وصفه ، إلا أن التعجب التالي يستقطعه :

يا لهذا الطفل ! يا لهذا الطفل !

وعندما أصبح الأبسو تحت سيطرة آيا بعد انتصار هـــذا الأخير على الإله القديم ، استطاع مردوخ على هـــذا الوجه أن يرتبط بآيا ، ونقلت كل صلاحيات آيا إلى الإله مردوخ، للتخلص

من الاستعانة ببديل ، وفي الوقت نفسه تلقت بابل الصلاحيات التي كانت تتمتع بها مدينة أريدو . ومنذ ذلك التاريخ الذي تم فيه الاتحاد بآيا ، أصبح مردوخ : « مستشار أنليل وآيا » ، « وصاحب التعزيم الطاهر » ، « وصاحب الجمال الجلال » .

وبقي أخيراً قدس أقداس قديم جداً ، وإله وجب إزاحته عن العرش هو الإله ان. زي = سن (الإله القمر) وهو من مدينة أور . وكانت تلقب هذه الألوهة بإله « المعرفة » ، وهذا ما جعل له مركزاً مرموقاً كإله للوحي والتنبؤ . وأصبح مردوخ حين خضع له هذا الإله إله « البارو » ، والعرّافين أو العارفين بالغيب ، وهم إحدى الطبقات المرموقة جداً في سلك الاكليروس .

وكان احتواء مردوخ لألوهـات البانتايون السومري — الأكادي قد تبناه علانية محرر اللوحة السابعة من ملحمة التكوين التي تمدد مع ذكر الخمسين إسماً التي لمردوخ ، قائمة بصفات الإله. وعند تلقيه العدد خمسين ، وهو عدد مخصص لأنليل ، تلقى مردوخ أكبر عدد ممكن بعد العدد الذي ناله انو ، الإله الأعظم الذي كان رقمه العدد ستون. وهكذا فقد بقي مردوخ بالرغم من كل جهود اكليروس بابل أدنى مرتبة من الإله السماوي الكبير أنو .

ومن بين الصفات التي اشترك بها مردوخ مع باقي ألوهـات البانتايون نذكر الصفات الأكثر تميزاً .

فهو يشترك مع آيا ونشر الخصب بواسطة الماء :
ملك المياه الجوفية ، هو مردوخ الينابيع ؛
والإله نينورتا ، هو مردوخ ، شفيع أعمال الري .
ومع الآلهة المحاربين :
الإله نرغال هو مردوخ الحرب
والإله زابابا هو مردوخ القتال .
ومع انليل :
الإله أنليل ، هو مردوخ الحكم والاستشارة .
ومع ولده :
الإله نابو ، هو مردوخ الثروة والغنى .
ومع :
الإله سن ، هو مردوخ الذي يضيء الليل ؛
الإله شمش ، هو مردوخ العدالة ؛
الإله أداد هو مردوخ المطر ؛
الخ .

وعلى هذا النحو المصطنع أصبح مردوخ إلهاً وحيداً . إلا أن البابليين الذين أصبحوا حكماء لأن الدهر قلب لهم ظهر المجن ، لم يتخلوا كليــــاً عن الألوهات المحلية القديمة ، ولم تنجح جهود الاكليروس البابلي إلا في فرض مردوخ كإله رسمي وقومي . ولم

يشتهر مذهبه بالرغم مما عرف من روعة إلا في بابل وبورصيبا . فلقد كان بشكل خاص « سيد بابل » وسيد الحبور والفرح » ، « وسيد الايساجيل » ، « وملك الد دين. تير . كي » في (« غابة الحياة » ، إشارة إلى الغابة الواقعة في سور الايساجيل). ولكن ما يميز تاريخ مذهب هذا الإله بوضوح هو الفكرة الفلسفية التي تصدر عنه .

وتصوّر النصوص الدينية القديمة الآلهة ككائنات إنسانية جبـــارة إلا أن لهم كل المعايب ، فهم : كذابون ، وجبناء ، ومخادعون ، ومتوحشون . وتصور الإنسان رازحاً تحت رحمة القدر ، ومخلوقاً للموت .

وفي حقبة أقدم من ذلك ، كانت تظهر الآلهة بطابع متقدم وملحوظ ، وكانت تلك هي حالة مردوخ تماماً . فكان للإنسان ثقة بنفسه ، وكان يبدو بشكل خاص أفضل تسلحاً ليدافع عن نفسه . فقد وضع بينه وبين الآلهة المتوحشة والخداعة نظامـــاً نظرياً يدل على تطور في الفكر الديني . فقد عهد بالدفاع عن الناس إلى زملاء للكهنة وكلفهم بالبحث عن تجنب غضب الآلهة ، وهم قادرون عند الاقتضاء ، أن يبطلوا مفعول هذا الغضب . « فالعرّافون » ، « والمعزمون » « والمجوس » هم الأكثر عدداً ، وستقع على عاتق مردوخ مهمة تعليمهم وتوجيههم . إلا أن

الاعتراف بعجز الكهّان والمعزمين المخيب للأمل لم يتوصل الى تخليص الضحية البشرية الرازحة تحت الغضب الإلهي ، فقد أجبرت الدين على القيام بخطوة إلى الأمام . وهنا تأخذ صورة مردوخ كل معناها ، فيلجأ الناس إليه ، ويستعطفونه بهذا اللقب الجديد :

أيها الإله الرحوم المانح الحياة للذين في القبور !

فبهذه العبارة يتضرع إليه الملك اشور ذاته ، عندما تسلم مقاليد الأمور في بابل !

والتقدم الملموس الذي يظهر هنا ، يدل كيف أن الفكر الديني حاول أن يفيد عندئذ من موت الإله وقيامه من بين الأموات . وقد عرفت منذ القديم أسطورة موت الإله : فالإله يموت من أجل كل الخليقة ، وقد ربط موته وقيامته بخصوبة التربة . وكانت هذه الأسطورة اسطورة تموز في بابل ، وأصبحت في عهد لاحق أسطورة أدونيس في فينيقيا . وأثناء نموه ، يضيف مردوخ إلى طباعه كإله للخصب صفة أخرى هي :

إله الإنسانية الخيّر .

وهي صفة كان يُحيّا بها في السنة الجديدة عندما كان يعبر شوارع بابل . ولقد أغدقت عليه هذه الصفة في ملحمة التكوين عندما انتصر على تيامات وخلّص الآلهة : « إله الآلهة

الخير ... » فهذه الرواية إذاً هي سر رحمة مردوخ وعظمته ، وهي الميزات الأساسية التي يظهر فيها الوحي في مذهبه .

ولقد حفظ لنا الأدب الديني العديد من القصائد والأناشيد ، ومن بينها قصيدة يقال لها الصالح المعذب ، التي هي نشيد لعمل الرحمة ألفه رجل خلصه مردوخ . فهو يصف باديء الأمر الحالة الكئيبة التي كان يعاني منها ذلك الرجل مع أنه قام بواجباته الدينية خير قيام :

تلفتت ورائي فإذا سوء الطالع يلاحقني!
وكأني لم أقدم لإلهي
التضحية المعتادة ، وكأن مواظبتي على العبادة
لم يشاهدها أحد ،
وأصبحت صنواً لمن كفر
ونسي سيده ،
فكيف يتعلم بنو البشر السير في درب الإله ؟
فكيف تحوّل البيت عندي إلى سجن ،
واربكت الساحر عضلاتي التعبة ،
وارتبك العرّاف من سوء طالعي ،
ولم يضع المعزّم يده على سبب مرضي ؛
وقد فُتِح القبر ، وتملك القدر مسكني!

وفي ما بعد يتدخل مردوخ :
لقد مسّني ... فأحياني!
وفي حين كان يجرني الخصم إلى نهر هوبور
— على طريق العالم الجهنمي —
فقد أخذني مردوخ من يدي !
وفي حين كان العدو يضربني ، فإن مردوخ رفع رأسي .
وحطم قبضة خصمي ،
ودمّر سلاحه !
ومن ثم يستبدل عمل الرحمة تجاه الإنسان المخلص بهـــذا التعليق :
وقد حُضّرت غرفة موته
وجلسوا إلى المأدبة
وعندئذ رأى البابليون كيف بعثه حياً !
وقد أشاد الكل بعظمته
فمن غير مردوخ أعاده من الموت إلى الحياة ؟
وأية آلهة غير زربانيت ، ردت إليه نسمة الحياة ؟
لقد استطاع مردوخ أن يبعثه من القبر ،
واهتمت زربانيت بانتشاله من لجة العدم !
وأخيراً ان الغنائية التي داخلت بعض الأناشيد تستحق

الغناء بأن يشار إليها بهذه الأشتات المتفرقة :

انا طوع يديك أيها الإله مردوخ ،
يا أقوى الآ لهة !
ويا أمير السماء والأرض .
أيها الصالح — الأعلى الوحيد —
فأنت تحمل اذن شرف أنو وبعل وآيا ،
والسيادة والوقار !
وأنت من يملك كل حكمة ،
وانت الكامل القوة !

في السماء أنت الأسمى !
وعلى الأرض أنت ملك !
وأنت المستشار الصائب للآ لهة ،
الذي أرسى أسس المساكن ،
وانت الممسك بحدود السماء المزدانة بالنجوم .

أنت عظيم بين الآ لهة .
فقد جعلك آيا شهيراً جداً .
ووضع بين يديك أقدار
الآ لهة العظام !

كبير جداً اسمك يا مردوخ المتوحش !
بين كل الآلهة التي تسكن
قدس الأقدس ،
مذبحك هو الأقدس
بالتضحيات والقرابين !

تقبل تضرعي !
واستجب صلاتي !

وكان المؤمن يتوسل في ما بعد إلى زربانيت لكي تتشفع به عند زوجها :

ايتها الملكة الجديرة ، القوية والقائدة ،
ايتهـــا الأميرة ، الآلهة ، السيدة ، السامية ، المعظمة ، الوقورة ، الشهيرة !
يا حبيبة مردوخ هبيني الحياة
وسأنحني أمامك صاغراً .
أود تعظيم قوتكِ ، ونبلكِ ، وسموكِ ،
يا ملكة الايساجيل ، يا إلهة الآلهات ، ويا ملكة الملكات !
ايتها الإلهة الخيرة التي تحب الصلوات ، اتضرع إليك !

ايها السيد القوي والغضوب ،

عسى قلبك المغضوب يهدأ ،
وعسى روحك المتوحشة تهدأ ،
عساك تؤاسيني لكي أحيا
بنفحتك يا أحكم الآلهة ، يا مردوخ السامي !

ويرفع معظم الكهنة التمازيم للإله مردوخ ليشفي المرضى . وبما أن مردوخ هو « ذلك الذي يحيي الموتى » فهو إذاً إله الطب ، وسنرى أن الكلب الذي هو أيضاً صفة للإلهة غولا ، إلهة الطب ، مثل لقب هيجي ، هو رفيق مردوخ ، كما أصبح لقب اسكلابيوس . ومن جهة أخرى ، أصبح مردوخ عند استشاره بألواح الأقدار ، سيد كل قدر ، واكتسب بهذه الصفة دوراً غير محدود في سير الأحداث . وترسخ سلطانه أيضاً بفضل السحر ، وهو صفة قد دلل عليها قبل ذهابه لمقاتلة تيامات . ولكن الاكليروس العارف بتملق الجماهير بالإله آيا ، سيد السحر ، يفترض هنا أيضاً حواراً بين مردوخ ووالده حول مريض ، أو رجل سيطرت عليه الأرواح الشريرة (وهذا الأمر لم يحدث أي تغيير بالنسبة للبابليين الذين كانوا يفترضون بأن المرض الجسدي كان نتيجة « سيطرة » روح شريرة على المريض اثر غلطة قد لا تكون إرادية أو « لسوء حظه ») .

ومن قبيل الاحترام ، يقصد مردوخ والده آيا ويطلب

المشورة منه بكل وقار . فيذكر آيا عندئذ بأنه نقل إليه كل ما لديه من معرفة ، وان ليس ثمة شيء لا يعرفه مردوخ . وهنـــا المرحلة النهائية من مذهب مردوخ ، القائلة بأنه ليس من الجوهر ذاته الذي منه الآلهة الذين حل محلهم . فعلى هذا النحو شقت فكرة التسامح والصلاح طريقها .

ودخل الفكر التقدمي الروح المحافظة في الشرق . فكيف قبلت الأديان القديمة الكبيرة فكرة الإله الواحد ؟ لقد برهن دريوتون ان فكرة إله واحـــد كانت قد نشأت في البانتايون المصري ، بالرغم من خليط الألوهات العديدة التي كانت تزدحم فيه . وقـــد تحولت ألوهات البانتايون البابلي إلى مردوخ عن طريق خرافة كانت تكبر يوماً بعد يوم ، ولم يتناول هذا التغيير جوهر شخصية مردوخ بل أعراضهـــا . وللباقتهم في سياستهم أكثر بكثير من الفرعون امانوفيس الرابع ، فقد كان ملوك بابل حذرين جداً من استعمال العنف ، وتلك كانت الدعاية التي قاموا بها لتقبل إله بابل هذا .

شعبية الاله نابو . — أصبح مردوخ ، سيد الأقدار وسيد العالم . وقد ارتبط اسمه من حيث شفقته على الشعب باسم ولده نابو ، فقد كان نابو هو الذي يسجل الأقدار على الألواح .

وكان الإله نابو كاتباً نحريراً ، وقد تأسست في مدينة بورصيبا ، مدرسة شهيرة جداً . ويرى المرء أحياناً على الألواح (حتى في

فينيقيا ، في رأس شمرا على تلك الألواح التي كتبت عليها بعض مفردات، إشارة إلى هذا الكاتب بعنوان: « خادم نابو ونيسابا».
وفي النصوص الرياضية البابلية ارتبطت إلهة علم الأعداد بنابو .
وكان يُبتهل إلى نابو بمزيد من الثقة بمعنى انه ظهر أيضاً كمخلص لوالده مردوخ . وثمة تمثال لاحياء ذكرى الملك أداد - نيراري الثالث ووالدته الملكة ساموراامات (سميراميس الشهيرة) أهدي إليه على هذا الشكل :

يا رجل المستقبل
كن مخلصاً لنابو !
ولا تضع ثقتك بأي إله آخر !

مثل مردوخ . - لقد اتبع الاكليروس الأشوري مثل مردوخ . فوُضع الإله أشور على رأس البانتايون وأصبح إلهاً قومياً . وكانت صفات هذا الإله التي تتفق مع المثال الأشوري الأعلى هي تقريباً صفات إله حربي فقط. وباضمحلال مملكة اشور اضمحل الإله اشور .

ولم يعش مردوخ طويلاً بعد سقوط بابل ، ولكن بالرغم من السيطرة الهيلينستية ، فإن مذاهب بابل القديمة بقيت حتى أوائل العهد المسيحي فإذا لم تعد بابل المحتضرة تضيء العالم المشرقي فإن ملامح عبادة مردوخ قد شقت على الأقل الخط الذي التزم به الفكر الديني ليكمل تطوره .

١٠ سقوط بابل

خلفاء نبوخذ نصر . — بعد الانتصار الشهير الذي أحرزه على المصريين في كركميش ، قام نبوخذ نصر بمد رقعة سلطانه من الفرات إلى مصر . ومع انه عقد تحالفاً مع الميديين بزواجه من الأميرة أميتيس ، فلم يصرف النظر عن بناء جدار الميديين بغية حماية بابل . وقد دلّ سقوط القدس وسبي بابل سنة (٥٨٦) ، اللذين رافقهما القضاء على صور ، دلالة واضحة ان البابليين قد حلوا محل الأشوريين. إلا أن هذا الحكم العظيم لم يدم. فقد كانت فترة السلام التي حمل لواءها الفرس على وشك الانتهاء .

وبوفاة ملك بابل سنة (٥٦٢) ، انفجرت الاضطرابات والقلاقل . وبعد سنتين من الولاية اغتيل ابنه ، وحل محله ابن

عمه ناريغليسار . ولم تدم مدة ولاية هـــذا الأخير سوى ثلاث سنوات ، اما ابنه الذي كان لا يزال طفلاً فقد اغتيل هو الآخر أيضاً . فدعي نابونيد عندئذ إلى استلام العرش سنة (٥٥٥) . وقد كان والده «احد العظماء» ، أي نبيلاً ، وكانت والدته كاهنة ذات مرتبة رفيعة . وكان نابونيد قد أصبح شخصية هامة منذ أيام نبوخذ نصر . فهل بالتازار ، ابن نابونيد ، هو حفيد نبوخذ نصر من أمه نيتوكريس، ابنة الأميرة المصرية التي تزوجت نبوخذ نصر؟ وكان بالتازار قد عين مساعداً للوصي منذ السنة الثالثة من ولاية ابيه . ويبدو ان الارتباط الذي قام بين عرش الملك الحاكم والأمير الوارث قـد أصبح قاعدة في الشرق منذ ذلك الحين . وكان بالتازار هو الآخر حاكماً في عهد ناريغليسار . وهذا مـــا يمكّننا من تفسير الالتباس الذي وقع فيه الكتّاب القدماء بين نبوخذ نصر ونابونيد من جهة ، وبين نابونيد وبالتازار من جهة أخرى .

وقد خلط هيرودوت بالتأكيد بين الاثنين. ويبدو ان كتاب النبي دانيال الذي يتكلم فيه عن أحلام نبوخذ نصر ينطبق أيضاً خير انطباق على قصة حياة نابونيد. وقد فُسّر أحد أحلام الملك وكأنه يتزعم فترة يقصي فيها الملك من قصره ويعيش سبع سنوات مع الحيوانات . وتخبرنا النصوص ان نابونيد بقي مدة

سبع سنوات في تايما ، وان بالتازار أدار دفة الحكم في المملكة وقاد الجيش خلال تلك الفترة .

وتخبرنا احد وثائق نابونيد المهمة كيف ان الآلهة كشفت المستقبل للملك في بداية حكمه . فقد ظهر على نابونيد في أحد الأحلام الإلهان مردوخ وسن (الإله القمر) ، وأمراه بترميم هيكل سن في حرّان . ولما اعترض نابونيد للإله مردوخ محتجاً بأن الميديين هم على مقربة من ذلك المكان أجابه الإله قائلاً :

« ليس للشعب الميدي الذي تتحدث عنه أية قائمة تقوم ، لا هو ، ولا بلاده ، ولا الملوك الذين يسيرون إلى جانبه ! فعند مجيء السنة الثالثة سيجتاح البلاد قورش ، ملك انزان وسيدها الشاب ، بجحافله القليلة وسيلحق الهزيمة بالميديين الأقوياء ؛ وسيقع استياج ، ملك الميديين في الأسر فيقتاده معه إلى بلاده ! تلك كانت أقوال الإله مردوخ » ...

وهكذا ففي السنة (٥٤٩) هزم قورش استياج وأعلن نفسه ملكاً على الفرس والميديين . وبعد ذلك بعشر سنوات ، (سنة ٥٣٨) ، دخل بابل منتصراً .

نابونيد وقورش. — لقد لقب نابونيد الملك «المهتم بالآثار» . ولاهتمامه بالمنشآت الضخمة أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون الحكم ، ترك لابنه بالتازار ان يضطلع بمهامه . فقد اهتم في هذا المجال

بشكل عملي اكثر بكثير من والده . ولا تفسر إقامة نابونيد في تايما ، تلك التي أشار إليها **سجل الأحداث البابلية** ، إلا إذا سلمنا بأنه كان قد فرض على الملك ترك دفه الحكم بشكل مؤقت ، إما على أثر مس من الجنون ، وإما لسبب آخر .

وفي سنة (٥٣٩) غزا قورش بلاد بابل . فدعا نابونيد كل الآلهة العظيمة التي يحتجزها في بابل إلى نجدته . وقد جاء في **سجل الأحداث البابلية** ان نابونيد كان أخيراً في طريق عودته إلى بابل ، في السنة السابعة عشرة من حكمه . وكان قد جرى في تلك السنة الاحتفال بعيد الاكيتو بحضور نابونيد . لكن **سجل الأحداث** يشير إلى أنه في شهر تشريت (؟) هاجم قورش مدينة أوبيس ! وفي الرابع عشر من الشهر نفسه ، احتلت مدينة سيبار ، ولاذ نابونيد بالفرار . وقد جاء في الإشارة إلى احتلال سيبار ان احتلالها تم « دون قتال » ؛ ولكن هذا التأكيد تكرر في اليوم السادس عشر ، حيث أشير إلى ان غورو (غوبرياس) ، حاكم بلاد غوتي ، وجحافل قورش قد دخلت بابل «دون قتال» . وقد وقع نابونيد أسيراً لدى عودته إلى بابل . ونجد في **سجل الأحداث** إشارة إلى وفاة شخصية كبرى ، دون أن يكون بوسعنا التأكيد ما إذا كان يقصد بها بالتازار ، الذي ربما اغتيل على حد قول تلك الأخبار .

وعندئذ أحاطت الحبال بأبواب الايساجيل ومذابحه ، لكي لا يدخلها أحد !

وفي اليوم الثالث من الشهر الثامن، دخل قورش مدينة بابل. وقد جاء دخوله بعد اسبوعين من استيلائه على بابل . فإذا كانت بابل ، وقبلها سيبار قد سقطت خلال يومين « دون قتال أو معركة » ، فلم يكن مثل هذا الأمر ممكناً إلا لخيانة ارتكبها غوبرياس ؛ وكان نابونيد قد أغاظ كهنة بعل — مردوخ في بابل حين بعثر جهوده بانسياقه لألوهات غير ألوهة مردوخ . وكان غوبرياس قد تزعم الحانقين الذين كانوا يدّعون بأن الإله مردوخ كان مغتاظاً من نابونيد ومن بابل .

واستغل قورش هذا الغيظ ، فذكّر البابليين بأن نابونيد قد أغاظ الإله مردوخ ، حتى ان :

الإله مردوخ طاف كل البلدان وبحث عن أمير عادل ، امير قريب من قلبه بوسعه أن يأخذه بيده ؛ وقد ناداه باسمه : « يا قورش ، ملك انزان ! » فعينه لسرير الملك ...

ومما يلفت النظر في كتابة قورش المدونة هذه ، هو توافقها مع ما جاء في كتاب التوراة على لسان اشعيا النبي :

هكذا يتكلم الأزلي إلى مسيحه ،

إلى قورش الذي يأخذ بيده.

(وعبارة « مسيح » تدل على أن الملك كان مكرساً من قبل الإله) .

لقد أطلقت عليك لقباً دون ان
تعرفني – لقد ناديتك باسمك !

ومن ثم يضيف نص قورش قائلا :

لقد نظر الإله مردوخ ... نظرة فرح
إلى أعماله الخيّرة ، وإلى قلبه العادل
وأمره بأن يذهب إلى مدينته
بابل ... وكصديق
ورفيق مشى إلى جانبه ...

وبتعابير مماثلة يعبّر الأزلي عن نفسه في سفر أشعيا قائلا :

سأسير أمامك ؛

أما فكرة القضاء والقدر فهي مماثلة تماماً في الروايتين .

وتنتهي اسطوانة قورش تدوينها المطول على هذا الوجه :

إن آلهة سومر وأكاد التي
أرجعها نابونيد ، على أثر غضب
مردوخ المظيم ، إلى بابل ،
بناء على أمر مردوخ ، جعلتُها
من جديد تحتل مذابحها بطمأنينة وهدوء .

ويضيف قورش في صلاته قائلا :
كل الآلهة الذين أعدتهم
إلى مذابحهم ، يومياً
أمام بعل مردوخ ونابو ،
يدعون لي بالعمر الطويل !
وليتهم يحدثون الإله مردوخ ، سيدي
عن قورش ... وعن
ولده قمبيز
وتشير الاسطوانة ، بالإضافة إلى ذلك ، أن قورش :
منح حق العودة لشعوب كل البلدان قاطبة .

فكان أمره هذا تحريراً لليهود ! ويبدو ان صفحة جديد قد فتحت ! فلم يتخذ قورش أي تدبير بحق بابل . وقد جعل منه حلمه ودماثة خلقه حاكماً شعبياً . لكن خلفاء هذا الملك العظيم لم يسيروا لسوء الحظ على خطاه. فاندلعت الثورة بعد حكم قمبيز. إلا أن تمرد بابل قمع بوحشية على يد داريوس . فثارت الحاضرة الفخورة تحت نير هذا الحكم الجديد ، وراحت تتذكر ماضيها ، وفترات حكم أمرائها العظيمة ، فلم تقبل بأن تكون مستعبدة . ولذلك فقد دك كسرى حصونها دكاً حاقداً لا رحمة فيه . فشهد هيكل مردوخ شراذم الجند تنقض على كنزه ، وتدنس « قبر

بابليس » ! فشمرت الحاضرة ، وقد فجعت بأعز ما كان لديها ، بالحياة تفارقها تدريجياً . وفي تلك الأثناء قام الاسكندر الفاتح بنزهة رائعة على ظهر جواده أوصلته إلى العاصمة القديمة .

الاسكندر الكبير في بابل . — كان الاسكندر ، وقد جذبه بريق الحضارة الشرقية ، مفتوناً بماضي بابل المجيد . فقد أراد أن يجعل منها عاصمة الشرق ، وراح يحلم بربط بطولاته الملحمية بأبطال التاريخ البابلي القديم . فقد تحركت روحه السامية أمام العديد من الآثار . ولحرصه على احترام العادات ، شرع بترميم هيكل مردوخ ليذهب بدوره « ويأخذ بيد البعل » ، ويوثق الصلة بتقاليد الماضي . فلم يتمكن ، لسوء الحظ ، من تحقيق أمانيه . فقد تكشفت له ضخامة المهمة التي عقد العزم على إنجازها ، عندما رأى بعد شهرين من الجهود انه لم يتوصل ، بمعونة عشرة آلاف جندي ، إلا إلى إزالة التراب الذي كان يحجب الآثار المتداعية . إلا ان حلم الاسكندر تحقق سنة (٣٢٣) ق. م. فنهايته الباكرة في المدينة العريقة ، الجديرة بأن تضم رفاته المجيدة ، جعلت اسمه منذ ذلك الحين صنواً لأبطال الأسطورة البابلية . فكأن بابل كانت تنتظر الاسكندر الكبير لكي تندفن مع رفاته . فلما انطفأ نجم ذلك الفاتح الشاب فوق تلك المدينة ، المعمرة ، راحت بابل تغط في رقاد عميق .

تأسيس سلوقية . — عندما اعتلى سلوقس العرش سنة (٣١٢) ، أسس على نهر دجلة عاصمة جديدة دعاها : سلوقية تجاه ستازيفون ، ونقل إليها كل إداراته ؛ فاستقطب هذا المركز الجديد الحركة التجارية بقوة . وقد أدت هذه الضربة الأخيرة التي لحقت ببابل إلى إهمالها كلياً . وشيئاً فشيئاً فارقت العاصمة القديمة الحياة ، فغطاها ليل الزمان بكفنه ، فغدت صحراء قاحلة ...

●

إلا أن عصرنا انحنى على آثارها فكشفت تلك الحاضرة الساحرة عن تاريخها وأساطيرها وخرافاتها ، وأماطت اللثام عن بعض الأسرار التي تلقتها حضارتنا [1] من هذا الشرق الأسطوري .

وبوسعنا الآن أن نردد مع النبي إرميا :

وبابل كانت بكف الإله

كأس خمر تنتشي الأرض به .

---

١ — لا بد من التنويه هنا بأن المؤلفة أوروبية (المترجان) .

فهرس

منشورات عويدات ٣١٠/ ٦/ ١٩٧٥

Marguerite RUTTEN

BABYLONE

Texte traduit en arabe

par

Z. AZAR & M. ABI FADEL

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

تاريخ بابل

رحلة في أرضنا المشرقية ؟

لعلّها الأروع ، بين جميع الأسفار إلى تاريخنا ، حيث الماضي المشحون بالمجد الذي ولا أبهى ، وبالعظماء الذين صنعوا التاريخ فكانوا عمالقة ، كما حجمه .

وهذه ، بين يديك ، صفحات تأخذك إلى حضارة ، يوم كانت ، لم تكن ، ولا حضارة بعد ، تتكاغي على شفاه الخلود .

ويكون لك ، أن تزور بابل ، هذه الحكاية المتعجّب ، تقصّ عليك حكايا الشعب العظيم الذي كانت له ريادة التاريخ ، حين لم يكن للتاريخ ، بعد ، وجه ولا هوية .

وتمرّ ، في الصفحات على العلاقات الأولى ، مع بابل ، وعلى أعمال التنقيب التي ضوّأت على نواحي السنوات الهاجعة في التاريخ ، لتطل بابل العظمى ، بحضارة البابليين الراقية ، وبناءاتهم المدنية والدينية ، وعلى جبين عباداته ، الإله مرد
الأرصدة العظيمة ، تنمو وتزدهر وتندثر ، تشهد سقوط بابل ، مع رفات الاسكندر الكبير ، وقيام الس

وتعرف ، وأنت تفرغ من القراءة ، كيف الحضارة ال
لم تتلقح من حضارتنا المشرقية ، بل اكثر ، نهلت منها حت

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth–Paris